نافيد كيرماني

حب كبير

ترجمة
أحمد علي

رواية

نافيد كرماني

حب كبير

رواية

ترجمها عن الألمانية

أحمد علي

فهرسة أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
كرماني، نافيد
حب كبير : رواية/ تأليف نافيد كرماني ت/ أحمد علي. ـ ط١. – القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٨
٢٠٨ ص، ٢٠ سم
تدمك: ٧ – ٠٦١ – ٨٠٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨
١ – رواية
أ- العنوان
ب- علي، أحمد (مترجمًا)
رقم الإيداع: ٧٦٣٩
الطبعة الأولى ٢٠١٨

إلى ملهمتي وزهرة حياتي

أحمد علي

(١)

سار ملك في أرجاء بلاده، يرافقه وزراؤه وقادة جيشه وجنوده وحاشيته وخدمه وحريمه، فأبصر على جانب الطريق رجلاً مسنًا رث الثياب مقرفصًا، ربما مجنون. ناداه الملك من على ظهر فيله ساخرًا: "تود بالطبع لو كنتَ أنت أنا". فأجابه المسنّ: "كلا، لا أريد أن أكون أنا."

(٢)

أول مرة أحب فيها كان في سن الخامسة عشرة، منذ ذلك الوقت لم يعش حبًا قط بهذه السطوة. إنها جميلة فناء المدرسة، اعتادت أن تقف في ركن المدخنين في الفناء، لا تبعد عنه سوى خطوتين أو ثلاث، دون أن تنتبه لوجوده. كان يعلم أن تلاميذ الصفوف الابتدائية ممنوعون من الوقوف بجانب المدخنين ـناهيك بتدخين سيجارةـ لأجل هذا حرص على ألّا يكون سلوكه ملفتًا، فبدا ككفيف يعبر الطريق، يختبئ خلف ظهران الواقفين. لم يرفع رأسه إلا لترقب عيناه سريعًا قدوم واحد من المدرسين، ولتختلسا نظرة خاطفة إليها، هذه التي بدت له بعيدة المنال كانت دائمًا الشمس التي تتوسط شِلّتها. ورغم شح أمله في نيل ودّها كانت فكرة أنها قد تضمر لأحد من طلاب الصف الثانوي الواقفين حولها أكثر من مجرد الاستلطاف تصيبه بالجنون. وليهدئ من روع هذه الفكرة راح يقنع نفسه أنها تغدق ببشاشتها وإشراقتها وعباراتها المنتقاة على هذا وذاك، توزعها على الجميع بالعدل. وظلت عيناه تحرسانها من أيادي الطلاب، التي قد تختلس لمسة ليدها أو ظهرها أو ردفها، ويخشى

في الوقت ذاته أن يستدير أحدهم فيسأله عما يفعل في ركن المدخنين. لطالما طرده المدرسون من هنا، وأضحت نظراتهم الغاضبة أو المستغربة إشارة كافية له بأن يغادر المكان، فآثر أن يقي نفسه حرج أن يُشدّ من وسط الجمع ويؤمر بالعودة إلى أقرانه أمام عيني جميلة الجميلات. فقد كفاه حرجًا ما هيأته له نفسه من إحساس بأنه صار موضعًا لنظرات جميع المدخنين، تتفحصه أعينهم في كل لحظة، رغم أنه كان يقف وراءهم ـ لكنها فكرة عطلت أي استنتاج منطقي.

(٣)

ترى ماذا يدفعني منذ يومين إلى التفكير في الفتى ابن الخامسة عشرة، لماذا كتبت عنه البارحة؟ ألأني كثيرًا ما كنت أتذكره؟ ربما كل يوم، منذ أن كنتُ أنا قبل ثلاثين عامًا ذلك الفتى الذي طالما قضى أوقات الفسحة في ركن المدخنين، رغم أنه لم يدخن ولم يعرف أحدًا من التلاميذ الأكبر سنًّا، يفترسه الشوق والقنوط، فيخفق قلبه معهما خفقانًا جعله أحيانًا يضع يده على صدره مذعورًا؟ وعندما قرأتُ طرفة الشاعر الفارسي "العطّار" عن الشيخ الهرم الذي لم يشأ أن يكون "أنا"، استولت عليّ فكرة أن حبي الأول، ذلك الحب الذي لم ير النور قط، ولد في تلك الطُرفة، في الرغبة في التخلص من الذات. ولاحقًا، وبعد مرور الزمان، فإذا ظن المرء أنه وجد نفسه، أراد أن يستبقيها ويحافظ عليها، وهذا ما أردته أنا على كل حال. صمّمت على الإبقاء على نفسي وعلى غرقي في بحر الهوى. قد يحتجّ القارئ على مقارنة فتى ساذج بعاشق ولهان، بغض النظر عن وصف المراهقة المعتاد بأنها مرحلة البحث عن الذات، فالقول بأن ضياع الذات الذي قد يبغيه المراهق له

طبيعة أخرى ومضمون آخر يختلف عن الطريقة الصوفية إنما هو نظرة سطحية. وقد بدأت أمس في الكتابة أملاً في أن أثبت للقارئ خطأ هذه النظرة.

(٤)

لا يتخيلن القارئ هذا الفتى خجولاً، أو مضطربًا أو قليل الحيلة، فقد اعتاد أن يمشي داخل الفصل في شموخ وخيلاء، حتى إن بعض أقرانه رأوه متغطرسًا مغرورًا، وكان في نظر مدرسيه تلميذًا متمردًا، وطالما استخف بكلام والديه، وليس من الصحيح أنه كان دون تجارب. كان شعره الطويل الملفلف يلفت إليه كثيرًا من الأنظار، وقد "مشى" عدة مرات مع بنات في مثل عمره، لم يكن من الغريب أنه لم يمارس الحب مع أي منهن في تلك السن، ولم يكد ذلك يضايقه. كم كان باله مشغولاً بسر "اتحاد الجسدين"، كان يخمّن معناه في الحياة، وكان قد عاهد نفسه على أن ينتظر علاقة تستحق اسم الحب. لم يفكر في جميلة فناء المدرسة، حتى في الأيام التي قضى فيها الفسحة في ركن المدخنين، لم يفكر في أحلامه، أو بالأحرى في سريره وتحت غطائه، أن يقبلها مرة أو يراها عارية. كان يمتلك حسًّا كبيرًا بالواقع جعله يدرك أن جميلة الجميلات لن تلتفت إلى غلام لا تسمح له سنّه حتى بالوقوف في ركن المدخنين. وسيعرف القارئ التفسير المنطقي لتواري الفتى وراء المدخنين، في تلك البقعة التي

اختلج في نفسه فيها شعور بالخجل والاضطراب وقلة الحيلة كما وصفته في صفحات الأمس. أحاول منذ أربعة أيام أن أستعيد مجريات الحدث، لكن ذكرياتي منها صارت كفيلم حذفت الرقابة أهم مشاهده. ما زلت أتذكر مشهد الفتى الذي يهرول في الممر الواصل بين مبنيي المدرسة في اتجاه جميلة الجميلات. كيف التقت نظراتهما ثم افترقت، وكيف عادت لتلتقي مرة ثانية وثالثة. لن أنسى أبدًا الابتسامة التي ظنّ أنها ارتسمت على وجهها قبل أن تغيب عن المشهد. ما زالت تحضرني صور طفيفة مشوشة لخيالاته الرقيقة الناعمة، التي أطلق لها العنان في الأمتار الأخيرة في الممر ولازمته إلى داخل الفصل، دون أن يؤمن لأكثر من لحظة أنها قد تتحقق، تخيل فيها أنه حبيبها، يمشيان معًا، يدها في يده، وسط نظرات استغراب أقرانه في الفصل، وسرعان ما يجد نفسه في الفيلم الذي قصته الرقابة، يقف بين أولئك الكبار. ولا يمكنني سوى أن أخمن كمّ العقبات التي تجاوزها كي يقف في ركن المدخنين، بل وتلك التي واجهها من أجل أن يعاود الكرّة في كل فسحة إن لم يراقب الفناء أحد المدرسين من أولي الحزم والصرامة، ناهيك بما احتمله من وابل نظرات الاستصغار التي أطلقت تجاهه في كل فسحة، وصموده أمام الهمس والسخرية التي ظن أنه يسمعها، على بعد خطوتين أو ثلاث من جميلة الجميلات، من تحت سواد ظل شعرها ـالحق أن شعرها كان ذهبيًاـ وجهها الصغير كنور أو مصباح يرفرف على جوانبه شعرها الأكحل، كما كتب الشاعر الفارسي نظامي في القرن الثاني عشر عن ليلى الفاتنة: "من ذا الذي لا يحس قلبه بلهفة الشوق عندما ينظر إلى هذه الفتاة؟ لكن

إحساس المجنون فاض على ذلك. لقد غرق في بحر العشق، حتى قبل أن يعلم أن الحب موجود. لقد أهدى المجنون قلبه لليلى دون أن يفكّر مليًّا فيما تخلى عنه."

(٥)

مر المجنون ذات يوم على دار ليلى، ولما نظر إلى السماء سمع صوتًا ينادي: "يا مجنون، لا تنظر إلى السماء، ولكن انظر إلى جدار ليلى، فأجاب: أكتفي بنجم يقع نوره على دار ليلى".

(٦)

قبل أن أواصل حكاية الحب الذي وقع فيه الفتى، أود العودة إلى ما ذكرته عن الممر الذي يصل بين مبنيي المدرسة. تبين لي أن ابتسامة جميلة الجميلات لم تكن قط من رسم خياله، فلقد رأى في لقائهما الأول ذاك الفلج الصغير بين ثناياها، أي إن ثناياها تكشّفت بشكل أو بآخر لما تبسّمت في أثناء مرورها ـ لقد توصل لهذا الاستنتاج المنطقي بعد مرور ثلاثين عامًا. كيف نسيتُ ذلك، هذا الفلج سيكون فيما بعد موضوعًا متكررًا. لطالما حرَصَتْ على ألا تتباعد شفتاها في أثناء الحديث سوى بقدر الحاجة، كانت تستشعر اللحظة المناسبة التي تخرج فيها من الضحك، وكلما أبصرت فيها هذا الخجل أقسم بإطناب بالكمال الذي أضفى على وجهها ذلك العيب الوحيد، الذي لم يكن في الحقيقة عيبًا، بل كشامة الحبيب في الشعر الفارسي. أمّا هو فكان يسليها، يحاول بنبرة حنون أن يضحكها، بأن يقلّد شفتيها المضمومتين في أثناء الحديث، أو يحكي لها نكاتًا دوّنها من أجلها حصرًا، أو يدغدغها في السرير في جنبها أو يداعب بأصابع قدمه بطن قدميها، ويحلّق من السعادة عندما تشرق

ابتسامتها على بعد يد أو ذراع من عينيه، تختلج فيه نشوة انتصار طفولية توحي بأنها كانت ستغدق عليه بالابتسامة في تلك اللحظة على كل حال. وعندما كان يقبلها، آهٍ وآه، ما زلت أتذكر الإحساس بثغرة سنيها تحتضن طرف لسانه. كان يعشق هذا الإحساس عشقًا يفوق أي سكرة أخرى، لحظة انسياب لسانه على أسنانها، ثم انزلاقه فجأة في فلج ثناياها، كأنها مفاجأة، أحب اللحظة التي يشعر فيها اللسان الطري اللعوب بسنّيها الناعمتين على جانبيه، حتى إن لم يكن قد سقط في تلك الثغرة سوى ملليمترات قليلة. لقد غرق فيها كمن غرق في البحر، وهذا عينُ ما قصده نظامي، رغم أن حبي لها الآن مضى طويلاً في غياهب ذلك البحر.

(٧)

في الحقيقة، لم يقضِ الفتى ابن الخامسة عشرة، الذي كان هو أنا، الفسح في ركن المدخنين صامتًا سوى لبضعة أيام، أو ما يزيد على الأسبوع بقليل. لقد جعله الارتباك يشعر بكل دقيقة كالدهر، إن تلك الذكريات هي ما يمطّ الزمن. لم تُبدِ جميلة جميلات الفناء أية إشارة تظهر أنها تتذكر لقاءها به في الممر الواصل بين مبنيي المدرسة، ولم تعطه نظرة تأذن له بها بالحديث إليها، ولم يتمكن هو من رؤية الفلج الذي يضفي على جميلة الجميلات صبغة الكمال. يبدو أنها انتبهت لهذا الفتى الذي يقف كل يوم في ركن المدخنين، رغم أنه لا يدخن ولا يتجاذب معهم أطراف الحديث، بل اندس على الأرجح بين الواقفين الذين يكبرونه سنّا دون استئذان. وربما تساءل الطلاب الواقفون عن هويته، أما هي، فواضح أنها أدركت أنه يأتي لأجلها. أوحت له سذاجته أنها لم تنتبه إليه، ولم تلحظ وجوده قط، لذلك أحس بخيبة الأمل، لأنه هو وحده من تذكر لقاء الممر، لا يمكن أن يكون قد أمل حقا في معرفتها، ناهيك بعلاقة تستحق اسم الحب. إن ما دفعه لأن يندسَّ بين جمع المدخنين في

الفسح كان في الحقيقة احتياجه أن يملي موق عينيه برؤيتها، على أمل أن يحظى بنظرة أو ابتسامة أخرى. لا أجد غضاضة في أن أسمي ذلك "العشق"، حتى إن كان الشعر الفارسي يضع اللقاء الأول دائمًا شرطًا للعشق. بصراحة، لم يكد يطمع في بادئ الأمر سوى في دغدغة، اختبار للشجاعة وحب المغامرة. وبعد ذلك، بعد أن فارقته، أرسلت إليه عتابًا أنه لم يحبها حبًا حقيقيًا، لتزيد على بؤسه سخطًا.

(٨)

ثمة سؤال يطاردني، لكن ليس مثلما يطاردني البحث عن دليل مغزى التصوف: هل إحساس الفتى ابن الخامسة عشرة، الذي سيتجلى على الصفحات التالية بجمال وبشاعة، هل يمكن أن يوصف بالحب، أو الحب الأكبر في حياته مثلما آمنت بذلك حتى أول أمس؟ علي الآن أن أذكر الخطاب الذي وضعه قبل ثلاثين عامًا في صندوق لم يخرجه منه مرة واحدة. ما زال هناك في مكانه، كل ما تغير أن الصندوق استُبدل به آخر كرتوني ثم مؤخرًا خزانة خشبية، لكن الخطاب ما زال يحتل مكانه بين جميع الخطابات الأخرى التي تلقّاها منذ ذلك الحين (حرصتُ في كلتا المرتين على ألا أبعثر الخطابات، كنت أسندها من الأسفل بيدي لأحافظ على تتابع تواريخها قدر المستطاع). وحسبما تسعفني ذاكرتي ـ وقد تهوّل الأحداث هنا مرة أخرى ـ كان الخطاب حسابًا كُتب بغضب، فلقد ألقت إليه وحده بالمسؤولية عن فشل حبهما، قالت إنه لم يكن يبادلها الحب، دهس الوردة بقدميه، وأثبت أنه غير جدير بأي غالٍ أو ثمين، ولا يزال أمامه الكثير ليتعلمه في هذه الحياة، هكذا تقريبًا كانت

نبرة خطابها، الذي تعرّفت اليوم في سطوره على الكتب التي تأثرت بها. لم أفهم منه آنذاك كلمة واحدة، لقد كانت هي من نبذته ووقفت إلى جانب طلاب الثانوية الآخرين في ركن المدخنين حتى لا يجرؤ على التحدث إليها، هي من كانت تنكر وجودها عندما يتصل بالهاتف، وهي من تغير سلوكها بين عشية وضحاها، فتصرفت ببرود وقلب نُزعت منه الرحمة والشفقة، هي من ألقته خارج الباب كأنه حيوان أصبح ثقيل الظل، هكذا شعر بنفسه، أو ككلب يُقذف بالحجارة حتى يبتعد عن طريقها بغير رجعة (هو أيضًا كان لديه كتب يتأثر بها). وعندما ابتعد ـفقط لأنه مرض وتغيب عن المدرسة أسابيعـ وصله منها خطاب بدا ردًا على خطابات التوسل والتذلل التي لم أعد أتذكر منها شيئًا، حكمت عليه فيه أنه المذنب. أستطيع أن أحضر الخطاب، فالخزانة في الطرقة، لا تبعد عن المكتب سوى ثلاث خطوات أو أربع على الأكثر. ما زلت أتذكر شكل الظرف، كان أصفر أو مزيّنًا باللون الأصفر، مكتوبًا عليه بالفلوماستر البني بخط أنثوي بدا للفتى خطًا رشيدًا. قد يكون من الأفضل أن أؤجل الحساب حتى أنتهي من حكاية الحب الكبير.

(٩)

كتب الشاعر الأندلسي ابن عربي ـالذي يلقب حتى يومنا هذا بالشيخ الأكبر تعظيمًا وإجلالاًـ في القرن الثالث عشر "أنا نفسي أشعر بالحرية غير العادية التي يجدها المرء في الحب. إنك تشعر برغبة قوية، بعاطفة جيّاشة، بالحب كقوة عاتية، بالدرن الكامل، يطير النوم من عينيك وتذهب عنك متعة الأكل، ولا تعرف فيمن وممن يحدث هذا. لا يتجلى لك الحبيب بصورة واضحة، وهذه أطيب رحمة أحس بها إحساسًا مباشرًا يشبه الطعم على اللسان":

(١٠)

كانت المدرسة تقع على نهير مستتر يجري خلال المدينة، يتوارى خلف سور أقيم على جانب الطريق. ولم يكن ركن المدخنين ركنًا، بل منطقة أمام وخلف فتحة في سور تؤدي إلى ضفة النهر. اعتاد الفتى أن يجلس في حالات الضيق التي انتابته لاحقًا على ضفة النهر، التي لم تكن مكانًا طبيعيًا ساحرًا، ولكن مجرد قطعة أرض غير ممهدة تقع بين مخزن إحدى شركات الشحن وموقف سيارات زبائن متجر أدوات البناء. لم يكن يعلم في الفسح الأولى التي قضاها صامتًا في ركن المدخنين أن هناك نهيراً خلف المدرسة. لم ير من مكانه بين الظهران العريضة سوى أشجار الأدغال خلف السور المبني من الطوب، شاهد أحيانًا أحد التلاميذ الكبار يختفي أو يظهر من بين أشجار الغابة. ولما تغيبت جميلة الفناء مرة عن ركن المدخنين انتهز الفرصة ليستطلع ما تؤدي إليه هذه الفتحة. أزعم أنه كان يدرك أنه سيجد جميلة الجميلات هناك. كان قد نسيها تمامًا لدقيقة كاملة، ومر عبر الفتحة وأخذ يراقب التجمعات الأخرى من التلاميذ في ركن المدخنين، الذين لم يقفوا بكثافة بجوار بعضهم البعض،

راح ينظر إلى طريق في الأرض بين الأشجار والأدغال حفرته أقدام المارة يصل بعد عشرين أو ثلاثين خطوة إلى شريط الضفة، التي كانت بعض أجزائها مكسوة بالحشائش. هناك وجدها، على بعد بضعة أمتار من النهير، بالقرب من سور شركة الشحن، رأى نصفها من الخلف ومن الجنب، يداعب شعرها الذهبي الشمس التي لا تجلب معها الدفء في هذا الوقت من العام، لكنها منحت رأسها في نظره نورًا كنور القديسين، رآها جالسة على حجر، رأى وجهها وأنفها الصغير، المسحوب في نهايته قليلاً لأعلى، رآها في بنطالها البنفسجي القطيفة الذي كان موضة في ذاك العصر، ومعطفها الفاتح اللون الذي يصل إلى فوق ركبتيها بقليل، بدا نهداها من تحت بلوفرها الضيق كتلين يعلوهما برجان قزمان، بين أصبعيها الرفيعين سيجارة وضعتها بين شفتيها شاردة الذهن. أتصور أن في هذه اللحظة، في هذا المنظر الذي بدا كرؤية، جميلة جميلات فناء المدرسة تجلس مشرقة على حَجَر، أمامها النهير الساكن وخلفه الشارع رباعي الحارات على الضفة الأخرى، وخلفها موقد النار الحجري تحيط به عبوات البيرة وأكياس الهوت دوج البلاستيكية الشفافة، وفي الخلفية شاحنات النقل المصطفة التابعة لشركة الشحن. أتخيل أن الحنين الصامت الذي لا يهدف إلى بلوغ هدف بعينه قد تحول إلى رغبة لم يعرفها من قبل ولم تصفها قراءاته. فمها، هلا فتحته مرة أخرى، مرة واحدة فحسب، لتبتسم أولاً، ثم بعد ذلك لتعطه قبلة، على الأقل قبلة، وتتواصل الخطة: أعطيها قبلة، قبلة واحدة. لكن توتره ورغبته الشديدة في بلوغ هدفه منعاه من مواصلة التفكير في

علاقة تستحق اسم الحب. وتفتق ذهنه إلى أنه من الأفضل ألا يتحدث إليها الآن، لأنه كان سيتلعثم وسيرتعش. إنها لم تلاحظه حتى الآن.

(١١)

عاد إلى ركن المدخنين، ولم تكد تفصله عشرون أو ثلاثون خطوة عنه حتى تبيّن له استحالة خطته ـبل والأدهىـ بلاهة هذه الخطة بالنسبة لفتى في سن الخامسة عشرة: ألم يجد سوى جميلة فناء المدرسة كي ينتزع منها قبلة، تلك الفتاة التي تقود سيارة، وستنهي المرحلة الثانوية عما قريب، وستنتقل على الأرجح بعد ذلك إلى مدينة أكبر للدراسة أو للعمل. ظن أنه سيفتح قلبها ولم يكن حتى قد عرف اسمها بعد. ازداد حيرة واضطرابًا وقلة حيلة بين مناكبهم العريضة. ثم ما العمل إن كان لديها صديق؟ لا بد أن لها صديقًا من خارج المدرسة. صديقًا أكبر سنًا، لديه وظيفة أو يدرس في الجامعة حتى تستطيع أن توزّع خفة ظلها المُعدية وكلماتها المنتقاة على رفقائها بالعدل. لا بد أنها مرت بعلاقات كثيرة. لقد غضب لتوه، فلم تنقض أكثر من ثلاث دقائق، تخيّلها عند النهر، يلمس فمها وثدييها وكل جسدها من رأسها إلى قدميها، وفجأة صعقته فكرة أن شخصًا آخر قد حظي بما لن يبلغه هو أبدًا. لم يكن كل هذا سوى لعبة، نزوة، مغامرة. وتخيل ـمحقّرًا نفسهـ أنه لم يكن سوى طفل

ألصق وجهه بفترينة متجر غالي الأسعار. خفض عينيه إلى الأرض، وأحس من جديد بنظرات التلاميذ الأكبر سنًا تتجه نحوه. ما أجمل أحذيتهم. كان تلاميذ الصفوف المتقدمة يلبسون أحذية سوداء لامعة مدببة كالتي تظهر في الأغاني المصورة آنذاك، وكان الآخرون يلبسون أحذية برقبة مصنوعة من الجلد الخشن فاتحة اللون أو قباقيب أو صنادل مبطنة بفُرُشٍ طبية، بينما ارتضى هو الحذاء الرياضي التي اشترته أمه له. وبعد أن مرت ثلاثون سنة، ربما يستهزئ البعض بضائقة الفتى ابن الخامسة عشرة، مثلما يستهزؤون بالموضات العجيبة التي تُذكّر بها الصور في ألبومات العائلة. وفي طريق عودته من النهر الذي أطال عنده لأول مرة في تأمل جميلة المدرسة نظر إلى حذائه – الذي لا أريد أن أقول إنه كان كبطاقته الشخصية، وإنما رمز، سمة واضحة لجزء إنساني غريب عنه. هذه المرة عاد متثاقلاً إلى الفصل قبل أن يدق جرس انتهاء الفسحة.

(١٢)

لما رفض أهل ليلى أن يقترب المجنون من خيامهم استعار المجنون فراء خروف من أحد رعاة الأغنام، وسأله أن يتركه يندس بين الغنم. وعندما مر القطيع على خيمة ليلى ورآها المجنون خر مغشيًا عليه. فأبعده الراعي عن الخيام وطسّ وجهه بالماء ليبرد لهيب حبه. من يومها صار المجنون يمشي في الصحراء ليس على جسده سوى الفراء. وعندما سأله الناس لماذا لا يرتدي ملابس أجاب: "أشكر الفراء الذي مكنني أن ألقي نظرة على ليلى، لا يمكن أن يكون على الأرض ثوب أغلى منه."

(١٣)

اجتاز الفتى الجسر بعد حصة الرياضيات المزدوجة التي تلت أولى الفسحتين الكبريين، وكان ينظر من مقعده في آخر صف في الفصل إلى النافذة، سمع الحصة، لكن كثرثرة بلغة أجنبية أو ضجيج صادر عن حركة المرور. خاطبه المدرس، وجه إليه سؤالاً على ما يبدو، فلم ترتسم على وجهه سوى نظرة خيبة، نظر موصد الفم منعقد اللسان. كان المدرس قد قال شيئًا ساخرًا أثار ضحك التلاميذ. وسأله زميله في المقعد بين الحصتين إن كان به مكروه، فأجابه إن كل شيْء على ما يرام. لم يكن مشهد جميلة الجميلات قد غاب عن عينيه، كيف كانت تجلس هناك على النهر، خلفها الشاحنة، وعلى الضفة الأخرى طريق رباعي الحارات: البسط. ثم انتبه فجأة أنه يقف في حالة من الخجل والاضطراب وقلة الحيلة بين الظهران الكبيرة، القبض. "القبض والبسط" مصطلحان يطلقهما الصوفيون على الحالتين الأساسيتين اللتين تتم في تتابعهما التجربة الصوفية، يسميهما هيجل أيضًا التاريخ. وقد أدرك ابن عربي في القبض والبسط بوضوح حدسًا تمتلكه روح الأشياء قبل أن تدخل تلك

الأشياء إلى حيز المعنى الظاهري. وبهذا يكون القبض والبسط أيضًا بشائر لحب لم يحدث بعد. بل وزاد ابن عربي في الوصف، فقال إن عنف الحب وإلحاحه وجنونه لدى المحبين من الشباب يقارن ويتقارب بل ويتطابق مع "استغراق" المتصوف في حب الإله تطابقًا يتجاوز التطابق في مجرد الأعراض. وتو أن دق الجرس معلنًا انتهاء الحصة هب الفتى واقفًا، وأسرع إلى خارج الفصل حتى قبل أن ينهي المدرس عبارته. أدرك تمامًا أنه إن ظل يقف بين أصحاب المناكب العريضة فسيقضي أوقاتًا طويلة من الفسح في ركن المدخنين حتى تشبع رغبته كمدمن على وشك أن يصاب بانتكاسة. في الوقت نفسه كان أمله معدومًا، يدرك أنه مقبل على عمل لن يحقق مراده بمقاييس عقله، أو بصياغة دينية: كان يدرك أنه سيصبح مخبولاً.

(١٤)

أسطورة تراود ذاكرتي عن الحب الكبير، وقفت جميلة جميلات المدرسة تتحدث إلى الفتى في الفسحة التي تلت حصتي الرياضيات. بالطبع كانت هناك أسباب لم أرد قط أن أعلم عنها شيئًا. وصل الفتى إلى ركن المدخنين مبكرًا عن أي مرة مضت، وكانت واقفة هناك تمسك بالسيجارة بين أصبعيها الرقيقين، ودون أن يحيط بها أي من التلاميذ. لم ترتسم على خديها النغزتان بعد، ولم تفصل بينهما الظهران العريضة. كان من الوارد أن يغض كلاهما الطرف عن الآخر حتى لا تلتقي نظراتهما. نذكر أنهما كانا قد التقيا بالفعل في الممر الذي يربط مبنيي المدرسة، وتبادلا الابتسامة، فلا بد أنهما سينخرطان في الحديث يومًا ما، لا أريد أن أقول كنتيجة حتمية، وإنما كتسلسل طبيعي، خاصة أن جميلة الجميلات لم تحسبه صغيرًا ممنوعًا من الوقوف في ركن المدخنين كما أكدت بعد ذلك في تفسيرها. ويمكن أن نعود بالذاكرة إلى الفسحة الماضية التي قضتها جميلة الجميلات على النهر بمفردها لنعرف أسباب حديثها إليه، ربما الحاجة للفضفضة، أو الرغبة في السلوان، هكذا أيضًا

كانت تنقل إلى من حولها البهجة التي اختصّته بها فقط لأنه ينظر إليها بأسى وشجن. سجّلت الذاكرة تلك الأحداث دون أن تمنحها أي معنى، أفضّل أن أعلن حديثها إليه معجزة أوجدت حبه. ويزيد هذا الغموض أن تلك الكلمات الأولى التي تبادلها الاثنان كانت عادية جدًا أو حتى تافهة. قالت: لقد التقينا مرة من قبل، أليس كذلك؟ ومن المذهل أنه أجابها بصوت ثابت: طبعًا التقينا مرة من قبل. ثم واحد واصل كلامه مباشرة بالحديث عن الطقس. لم يجد إلا الطقس؟ حتى لا يعطيها فرصة أن تسأله عن صفّه في المدرسة أو تعرض عليه سيجارة. وبينما تحدث عن الربيع الذي ينتظره الناس في مدينتهم مثل كل عام غضب لأن خياله عجز عن الإتيان بأي حكاية لطيفة. كلا، إنها تتطلع بشوق إلى الجو الدافئ، وبدا أنها أقبلت بسرور على الحديث في الموضوع، أخبرته عن اشتياقها للألوان والآيس كريم. لقد استعلم عن توقعات الطقس، التي تنبأت بجو مناسب. وبينما شكرته على المعلومة بدأ التلاميذ يتدفقون من مبنى المدرسة. "ومن يكون يتخيل أن تتدفق من فمها الصغير كل هذه الحلوى؟" كما قال الشاعر نظامي في القرن الثاني عشر عن ليلى: "أهل يمكن أن يهزم الإنسان بالسكر جيوشا".

(١٥)

في اليوم التالي ذهب الفتى في الفسحتين ليكون أول من يصل إلى ركن المدخنين، وفعل ذلك في اليوم التالي والذي يليه (أرى أنه قضى الفسح أكثر من أسبوع بين الظهران العريضة، وربما أسبوع آخر). حزّ في نفسه أن جميلة الجميلات لم تأت مرة أخرى مبكرًا إلى فناء المدرسة، لم تعطه الفرصة لحوار آخر، بل ربما كانت تعمد أن تتأخر، أو الأسوأ، أنها لا تميل له أي ميلٍ يثير حسد الآخرين، بل قد لا تكترث بوجوده، أو لم تلحظه أصلاً، حزّ ذلك في نفسه أكثر من أي نظرة غاضبة، من أي حركة تعبّر عن الضجر، من أي كلمة كان بمقدورها أن تلمح له بها أن الأمل معدوم. فمنذ لقائهما الثاني توقع كل شيء، فكّر في شكل تطور علاقتهما وصولاً إلى الارتباط الذي يستحق اسم الحب. شيء واحد لم يحسب له حسابًا: لامبالاتها. يعلم الله كم من العبارات رتبها وجهزها في نفسه ثم تخلى عنها كي يقبل على الحديث إليها. لم يعد يقدر على السيطرة على نظراته التي توجهت إليها، ترمقها دون انقطاع بدلاً من أن ينظر إلى الأرض أو إلى المدرسين. على أية حال، يخطر ببالي بعد مرور

ثلاثين عامًا، أن الفتى كان يحدّق باستمرار في جميلة الجميلات في فناء المدرسة كمن حلّت فيه روح المجنون الذي عندما سأله أحدهم عن اتجاه القِبلة فأجاب: "إن كنت كتلة جاهلة من الطين فقبلتك حجر الكعبة، أما إن كنت عاشقًا فتوجه في صلاتك إلى ليلى". وعندما أتخيل الموقف لا أظن أن نظراته كانت متبجحة وإلا كانت هي أو التلاميذ الآخرون سألوه عن السبب أو سخروا منه، أو ذهبت إلى مكان آخر خلف السور يقف فيه أيضًا مدخنون. من ناحية أخرى فلا أظن تصرفه كان عاقلاً، فقد افترسه الحرج عندما جُذِبَ من الجمع أمام عيني جميلة الجميلات ليؤتى به إلى أقرانه بعد أن تجاهل واحدًا من أكثر المدرسين صرامة. لكن هل لاحظت أصلاً أنه من تلاميذ الصفوف الأولى؟ فكل شيء حدث بسرعة، مجرد ثوانٍ، قدوم المدرس الذي فاجأه من مسافة قريبة بالسؤال عما يفعله في ركن المدخنين، حضور ذهن الفتى الذي انقد على الأقل للحظة، همهمة اعتذاره وفراره على عجل دون أن يرفع عينيه، غياهب الحسرة التي ارتمى فيها عند ركن المبنى الآخر. كلا، لم أدرك للأسف إلا بعد ثلاثين عامًا أنها لم تلاحظ شيئًا. لكنه ظل يعاني من عدم اكتراثها به، وكان بإمكانه أن يستنتج أنها لم تعر أي اهتمام للعبارات التي تبادلها مع المدرس بصوت خافت، التي لم تتجاوز أربع عبارات استمرت دقيقة على الأكثر. لكن كما يقال، العشق يعمي الحبيب عن أي استنتاج منطقي.

(١٦)

لنفرض أني لم أملك قط صورة لي وأنا في سن الخامسة عشرة، ثم أخذت لي واحدة من قبيل الصدفة، فلا أظن أني سأتعرف على نفسي. لا تزال أشياء كثيرة تربطني بذلك الطفل، الذي هو أنا، أتفاخر بشكل تعامله في الشلّة، في أثناء اللعب، وفي الصداقة وغير ذلك، حتى النظرة ووضع الجسد في صور الفصل أو الفريق، التفكير والآراء في الدنيا، التي ترن بتفاصيلها في أذني، كلا، بل أكثر من ذلك، تلك التي بقيت تخصني بعد كل التغيرات. ثم بعدئذ، عندما كبرت، أو لنقل، عندما سمحت لي لائحة المدرسة بالتدخين لآخذ الطريق الأقرب وطورت نفسي اقتداء بالإنسان الذي أعتقد أنه أنا. أرى تلميذ المدرسة الثانوية أمامي ولا أتردد أن أقول: أنا، الدارس والمدروس، الزوج والمطلق، الابن وفي هذه الأسابيع كثيرًا الأب، ولا أجد شيئًا آخر أقوله سوى: أنا. مجرد الفتى الذي يهرول مع بداية الفسح الطويلة إلى ركن المدخنين حتى لا يضيع منّة جميلة الجميلات، هذا العاشق الضال، الولهان المستثار، المجنون من مجرد نظرة، والقانط بعدها من الحياة، بل المنهك، الذي يجب

وصفه بالأحمق بسبب سلوكه السخيف الذي سلك مسلك الكتب أكثر مما استعان بخطة لاقتحام قلبها، من يمكن أن يكون هذا؟ لقد أظهرت الحياة بمرور الزمن أني ما تصرفت قط مثله. ولكن من وقتها لم أعد أشبهه قط. لقد أحببت، على ما يبدو حبًا أعمق، ولزمان أطول بكثير، ثم إني خضت حربًا أكثر ضراوة، وفقدت أكثر مما فقد، على الأقل عشت نشوة الجسد أكثر منه. لم أكن دائمًا الرجل الخامل مثلما أظن اليوم أمور المشاعر. ومع ذلك لم أعد أعرف نفسي في ذاك الفتى، ومع ذلك فهو ليس أنا، والتغريب المترتب عن استخدام ضمير الغائب أكثر من مجرد حيلة أدبية. لا بد أن هناك سببًا جعل ابن عربي يصف الحب في بشائره صراحةً بأنه يضاهي ويقارب "استغراق" المتصوف، ليس مجرد تطابق في الأعراض. وربما نكون نحن في المكان الذي نظن على الأقل أننا فيه.

(١٧)

إذا صُنف الفتى بين المسميات الأربعة الأساسية للحب التي ذكرها ابن عربي (اللغة العربية قدمت للشاعر الأندلسي أسماء فرعية عديدة لوصف الحب) فليوضع تحت "لوعة الحب المباغتة، أو الميل المفاجئ للحب"، الهوى، وتحديدًا الوصف الأول بين عدة أوصاف وضعها ابن عربي تحت هذا المصطلح. ويعبر هذا الوصف الأول بين المسميات الأربعة الأساسية للحب عن "ما يتهاوى على القلب أو يظهر فجأة فيه وينتج عن حقيقة الحبيب (أو الحبيبة) التي لم تتضح بعد، وتخترق قلب الحبيب (أو الحبيبة) بسبب شكله الخارجي فقط." فهو ذلك الولع الذي يسبق الاتحاد مع الحبيبة، بداية العشق، وله في العادة واحد من ثلاثة أسباب، التي هي النظر والسمع والإحسان. ولابن عربي من الواقعية ما يكفي لمعرفة أن النظرة هي المسبب، أما لوعة الحب التي يسببها السمع فنادرة الحدوث حتى في ثقافته التي تتسم بالحس السماعي المرهف، وكانت دائمًا مخيبة للأمل. فنادرًا ما توفي الهيئة بما تنبئ به جاذبية الصوت. في الوقت نفسه فإن أضعف الحب ما يقوم على الإحسان، أو

بشكل عام على أفضال الحبيب. ويشير ابن عربي إلى أن كلمة "الهوى" مشتقة من الجذر "هوي"، أي "المضي والإسراع" أو "السقوط من علو"، وهو فعل في سورة النجم: "والنجم إذا هوى"، والاسم "هوى" في معاجم اللغة يعني "المعاناة من الحب" (كل هذا ولم يبدأ الحب بعد). ويضيف أن من الجذر نفسه يشتق اسم "هُوِي"، أي "السقوط في الشيء"

(١٨)

لقد عرف اسمها ـليتني أستطيع أن أروي شيئًا غير تقليدي، كأني سرقت كراستها، أو جازفت وراقبتها، أو شيئًا مثل ذلكـ لكنه سأل مدرس اللغة الألمانية الذي كان يدرس أيضًا لتلاميذ المرحلة الثانوية. ادعى في أثناء الفسحة القصيرة أنها أوصلته بالسيارة إلى البيت لأن الليل قد حلّ، وأنه يريد أن يشكرها بخطاب قصير وبعض الشوكولاتة، قال إنها تماثله في الطول، شقراء شعرها متوسط الطول، عيناها بنيتان، ترتدي بنطالاً بنفسجيًا في أغلب الأحيان، وبين سنيها الأماميتين فراغ صغير لا يكاد يلاحظ. أدرك المدرس على الفور أن جميلة جميلات المدرسة إحدى التلميذات في فصله، وطلب منه أن يعدها ألا يسألها أن توصله مرة أخرى إذا حلّ الليل. وها قد جلس الفتى في حصة اللغة الألمانية الثانية مع اسمها الذي خيب أمله قليلاً، يفكّر فيما قد يفيد هذا الاكتشاف، شق عليه أن يكتب خطابًا، فماذا يستطيع أن يخبرها غير أنه يحبها، ولكن بأي أمل واقعي؟ يريد أن يراها مرة أخرى، ولكن لأي سبب منطقي؟ لأنها آية في الجمال، ولكن بأي تطلع مقبول؟ خشي في

الوقت نفسه أن يتحدث إليها المدرس في حصة المستوى الرفيع، فيخبرها بأمر الخطاب ويثني على اهتمامها الذي يحتذى به. تناثرت آلاف الأفكار الفظيعة في رأسه، تخيل آلاف المواقف، كل موقف مخجل أكثر من الآخر. من المفهوم أن عليه أن يفعل شيئًا، فإن كتب لها خطابًا فليستخدم اسمها كي يضفي أهمية على اكتشافه، لكن الأكثر إلحاحًا، كان عليه أن يجد بأسرع ما يمكن تفسيرًا لمعرفته اسمها حتى لا تستاء من خدعته. تجدر الإشارة إلى أن ابن عربي يُرجع الاضطراب الذي يلم بكيان المحب إلى الحيرة الضرورية والمستمرة في التوصل لأفضل الطرق للقرب من الحبيب، ويذكر أن من بين علامات الحيرة افتراض أن الحبيبة تبدو كاملة لكل من تلاقيهم، وعلى كل إنسان أن يجد فيها ما وجده فيها المحب.

(١٩)

عوقب سارق بقطع يده، فحمل يده المقطوعة بيده السليمة ومضى. وعندما سأله أحدهم لماذا يحمل اليد المقطوعة أجاب "لقد وشمت عليها اسم حبيبتي."

(٢٠)

لم يكن ما انتشل الفتى من مأزقه أكثر شذوذًا من الاضطرابات الكبيرة التي شهدتها سنوات تلك الحقبة، وكانت قد اندلعت بفعل الثورة في بلد قراءاته المفضلة. آنذاك اجتاحت غرب ألمانيا احتجاجات عارمة على التسلح النووي، وخرج مئات آلاف الناس مرارًا إلى الساحة الخضراء (هوفجارتين) بالعاصمة القديمة للتظاهر ضد ما يعرف بالقرار المزدوج لحلف شمال الأطلسي، أغلبهم من الشباب. وقد أدى "تسييس" بلد كتبه المفضلة إلى أن انضم الفتى لإحدى مبادرات السلام، التي كان هناك كثير مثلها في المدن الصغيرة. ولأن المظاهرات لم تنجح في إثناء الحكومة عن مسارها أغلق المتظاهرون الطريق المؤدي لوزارة الدفاع. لم أعد أتذكر الدافع، ربما كانت هناك قمة مرتقبة لحلف شمال الأطلسي، أو قرار مهم في البرلمان، أو كان الغرض سد الطريق على بعض الوزراء الاتحاديين أو كلهم في آن واحد. الأمر الأكيد الذي أعرفه أن وزارة الدفاع كانت مكلفة بالتعامل مع حركة السلام في المدينة بكاملها، لكن ابن عربي كان سيضيف: الله أعلم. شهد اليوم نفسه مصادفة أخرى

أنكرها الفتى كي يبرهن أن حبه حدث مصيري، ففي اليوم نفسه الذي عرف فيه اسم جميلة الجميلات التقى مساء معرقلو المبادرات المختلفة في جمعية الطلبة الإنجيلية لمناقشة خط السير إلى العاصمة وقواعد التصرف. وبالنظر إلى المجنون والعاشقين الآخرين فقد يظن البعض أن حالة الفتى النفسية لم يعد لديها إحساس باضطرابات العصر، يجلس بائسًا شاكيًا في أحد الأركان حيثما اعتاد الوقوف في ركن المدخنين، وحيدًا. كلا، بالطبع لم يكن وحيدًا، بل لم يكن قط وحيدًا، وإن كان بمفرده فلبضع ساعات فحسب. شارك مشاركة مقبولة في الحصة التي تلت حصتي اللغة الألمانية، ولم ترد لديه فكرة عدم محاصرة وزارة الدفاع بسبب عوز الحب، ربما لم يكن عوزه شديدًا أو لم يشتد بعد، وأسقطت الذكرى الشقاء الذي انتابه لاحقًا وصمدت أمامه المقارنة بالمجنون أو العشاق الآخرين في الأدب على بدايات القصة حتى تأخذ مسار حكايات الحب الأخرى في الأدب. وكان ابن عربي سيرى هنا أن الله يحكي قصصًا أفضل، وذهب الفتى مساء إلى اجتماع مبادرات السلام المختلفة، التي ـ آه، سيعلم القارئ فيما بعد من التقى في بهو صالة الاجتماعات. "أهلاً يوتا"، ناداها دون تفكير، "أهلاً"، ردت في شغف لمعرفة كيف عرف اسمها.

(٢١)

إن الوقاحة هي ما لم أعد أجده اليوم في نفسي، لا أقول الجرأة التي كانت تميز الفتى، في مواقف كثيرة مشابهة لا علاقة لها بالحب وليس على مدار حكايتنا فحسب. لا أقصد الشجاعة التي تدفع فتى في الخامسة عشرة مثلاً إلى التحضير لعمل مخالف للقانون ومحاصرة وزارة الدفاع دون أن يخطر والديه. تجرأت وسيتجرأ أغلب القراء على أكثر من ذلك عند وجود خطر على المصلحة الخاصة. لكني أعني الجرأة التي تدفع الإنسان دون مقدمات لقول أو فعل ما يهمس به القلب في المواقف الحاسمة التي تمثل علامات فاصلة في مسار أمر أو علاقة، وتعينه على إظهار صراحة غير مألوفة، أو كذبة سافرة وإصرار على المبالغة، أو حقيقة قاسية، بل واجتياز الموقف بهذه السبل. أجل، إنها مفتاح زيادة السرعة في التعامل مع الآخرين، هذا تمامًا ما أقصده، "شاحن للسرعة"، حتى لا أنسبها إلى ابن عربي، كما أقصد ـبالإضافة إلى الأبعاد الأخرى التي ربما أكون قد أغفلتها أو لا أستطيع تفسيرها هنا على الأخصـ الإسراع في الحيد عن أعراف التقدم المعتادة، التي لم تنشأ لدى

فتى في الخامسة عشرة بفعل الثقة والنباهة مثلما تنشأ لدى كاسر قلوب متمرس، ولكن بفعل الافتقار إلى الخبرة وانعدام الثقة، أقصد أن في بلاهته البهلوانية سببًا للفتنة التي استطاع بالفعل أن يوصلها لجميلة جميلات فناء المدرسة حتى لا تختار غيره من بين الآخرين. تلك الفتاة التي تقود سيارة، وستنتقل قريبًا لنهاية المرحلة الثانوية، لم تجد طيشًا كهذا في أي من أقرانها أو الشباب الذين يكبرونها سنًا ممن تجاوزوا مرحلة الدراسة أو اقتحموا بالفعل حياة العمل. ويبدو أنها هي الأخرى لم تعد فتاة طائشة، لكنها على الأقل تتذكر تلك المرحلة. "لقد سألت مدرس اللغة الألمانية" هكذا أخبرها الفتى كيف عرف اسمها. سألته وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة فضول: "ولماذا سألته؟". "لأنه ليس هناك في فناء المدرسة من هو أجمل منك". بهذه العبارة استطاع أن يجعلها تبدي الثغرة بين ثناياها.

(٢٢)

يا إلهي! هززت رأسي اليوم بعد أن تذكرت تتابع مشاهد الأحداث في صالة جمعية الطلاب الإنجيلية، وابني الذي سيُتم الخامسة عشرة قريبًا. ليس العمر وحده. وحسب موضة ذاك العصر التي واظب عليها الفتى منذ عدة أيام كان يرتدي "أوفرول" مقلّمًا باللونين الأبيض والأزرق، وفوقه ثلاثة "بلوفرات" قطنية، أخضر وبنفسجي وأصفر داكن، أطولهم على جسده مباشرة وأقصرهم من فوق، أضف إلى ذلك شعره ذا التجاعيد الضخمة الهائشة التي تذكر بالمطرب "جيمي هيندريكس" والنظارة النيكل ذات العدسات المستديرة الصغيرة كالتي كان يضعها "جون لينون"، فقط ذقنه الخفيفة التي بدأت تنبت لم تبد بعد كلحية كارل ماركس، رغم أنه كان يمشطها كل صباح. أما المدهش فكان شبشبه الجديد ماركة "بيركنشتوك"، وهو نعل مفلطح ذو فرش طبي كلّفه مصروف شهرين. كان الناس سابقًا يتفننون في صنع خيال المآتة على هذه الهيئة. عدت بالذاكرة وفهمت عذاب والدي، دون أن أرى أي منطق في الموضة التي استسلم لها ابني (يا ربي، البنطال الساقط

تحت الخصر). وخيال المآتة هذا، الفتى الذي ليس لديه أي معرفة بالعالم أو الحب الجسدي، هذا الأبله الأهوج الذي لا يكتسب معرفته سوى من كازانوفا، هذا الرُّجيل المنعدم الخبرة، يجذب بحق فتاة يافعة، بل تكاد تكون امرأة بالغة، في صالة بجمعية الطلاب الإنجيلية، تلك الفتاة التي أقسم أنها أجمل فتاة في جميع أفنية المدارس في العالم بأسره.

(٢٣)

"إن عين الجمال لا ترى الجمال، ذلك لأن اكتمال الجمال لا يمكن أن يرى سوى في مرآة حب الحبيبة" كما علّم الشاعر الفارسي أحمد الغزالي أخو الإمام أبو حامد الغزالي في القرن الثاني عشر. "لهذا يحتاج الجمال إلى المحب حتى يستطيع الحبيب أو الحبيبة الهناء بجمالهما الخاص في مرآة حبه المشتاق". أشير في هذا المقام إلى كلمة الله التي لم يقتبسها أحمد الغزالي في أفكاره الكثيفة لأنه انطلق من بداهة معرفتها: "كنت كنزًا خفيًا وأحببتُ أن أُعرف، فخلقت الخلق." يفرّق أحمد الغزالي بين المحب والمحبوب تفريقًا أكثر صرامة وقسوة وعنفًا مقارنة بغيره من المتصوفين، كما يفرق بين طبيعة حبهما، فحب المحب موجود حقيقة، أما المحبوب فليست سوى ضوء نار الحب التي تنعكس عليه. ولأن المحب والمحبوب ليسا سواء، لأنهما لا يتطابقان، بل يتعارضان تعارضًا يصل إلى حد العداء أو الإيذاء، فالحب يتطلب من المحب "الشقاء والارتياب وقلة الحيلة، بل والذل والخنوع الكامل" بينما يضفي الحب على المحبوب "الطغيان والجلالة والكبرياء"، لذلك فإن اتحادهما حدث مهلك يدمر

أفقهما وخيالهما وصورتهما الذاتية، أي ذاتيهما. ثم يضيف الغزالي أنه نفسه لا يعلم "من المحب ومن المحبوب لأن ذاك يبدأ، وهذا ينتهي، أو هذا يبدأ... وفي ذلك سر كبير".

(٢٤)

لم يحقق حتى الآن أي مكسب، فلم يكن وقوف الفتى إلى جوار جميلة الجميلات في قاعة الاجتماعات بجمعية الطلاب الإنجيلية سوى تمهيد للتعارف، وعندما سألته عن صفه الدراسي لم يخطر بباله ويرد على لسانه سوى الإجابة الصحيحة، إلا أنه لم يعرج بعد ذلك في الحديث على مدرس اللغة الألمانية الذي يدرس لصفيهما كي لا تسأله عن وضعه في ركن المدخنين. على الأقل لم تتحدث معه كما لو كان طفلاً، وبدت كأنها تبحث بعفوية عن مقعدين متجاورين. شجّعه أنها لم تتواعد مع أحد. ثم أطلق في أثناء الاجتماع ملاحظة دوت بين جميع النشطاء الحاضرين وأثارت جدلاً في القاعة لعدة دقائق أو ربما أكثر، خطبة عصماء تدعو إلى اللاعنف، وتساؤل عن ضرورة التماسك في حالة الاستفزاز. أجل، لقد أحس، اعتقد أنه يرى بطرف عينه أنها توافقه الرأي، بل وربما تتأمله باستحسان. والحق أنها أهدته ابتسامة، بعدما انتظر وقتًا كافيًا ثم أدار رأسه ناظرًا إليها. لكل إنسان في حياته أفعال عظيمة لا يكاد يبصرها الآخرون، وقد لا تبدو ملفتة في ظاهرها، بل قد

لا تؤثر أدنى تأثير في سير الحياة، إنها الأفعال التي تحدث بين الإنسان وربه. لقد كانت فعلاً خطبة قصيرة، وحتى عبارات متناثرة مثل "لا تمنحوا الشرطة هذه الفرصة" تحضرني الآن فجأة، وأن العنف يصبح هدامًا عندما ينمو التآذر بشكل ممتاز مع حركة السلام داخل جهاز السلطة. لقد كانت الكلمة التي ألقاها الفتى في اجتماع مبادرات السلام المختلفة واحدة من تلك الأفعال، وإذا قصرنا الأمر عليه وحده فهو فعل ليس أقل من أن يوصف بالإنجاز التاريخي. وأستطيع في أفضل الأحوال أن أفسر شجاعته ـلكن ليس هذا البركان البلاغي ولا الحنكة السياسية التي مكّنت فتى في الخامسة عشرة من العمر من أن ينجح في الاختبار أمام مجموعة من أربعين أو خمسين شخصًا على الأقل، معظمهم من النشطاء البالغين. كلما توجب عليه في هذه الحياة أن يتحدث على الملأ ما استطاع أن يلقي بعدها كلمة شعر فيها أنه تفوق على نفسه، فقط حسب شعوره الخاص. على أية حال فلم يكن لديه من قبل سبب مهم كهذا. كما شق عليه جدًا أن يسأل الجميلة بعد الاجتماع إن كانت ترغب في مصاحبته لشرب البيرة. كانت سترفض لا محالة، إذ لم يتعارفا سوى من فترة وجيزة. أما الأكثر واقعية فكان الأمل في الجلوس إلى جوارها في أثناء الذهاب إلى المدينة، إذ كانت قد عرضت أن توصله بالسيارة إلى البيت. أجابها محاولاً قدر الإمكان إظهار عدم ضرورة ذلك: "لقد جئت بالدراجة"، وافتخر صباح اليوم التالي بأنه استطاع السيطرة على نفسه. لن يقضي الفسح في ركن المدخنين بعد ذلك حتى وقت حصار وزارة الدفاع. فلقد استطاع الفاتح أن يجد استراتيجيته.

(٢٥)

ساعة إلا ربع قبل إقلاع الحافلة، أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة والنصف صباحًا. كان الجو ممطرًا عندما أنزلته أمه من السيارة خلف بناية القاعة المتعددة الاستخدامات بالمدينة ظنًا منها أنه ذاهب في رحلة مع المدرسة. سألته متعجبة عن سبب خلو موقف السيارات تمامًا من الناس: "هل أنت أول من وصل؟" أجابها أن تلاميذ الفصل سيلتقون أمام الصالة، وأنه سيسير من حول الصالة على قدميه، هكذا أسهل من أن توصله بالسيارة إلى هناك، لأن الشارع في اتجاه واحد (يقوي "جوجل مابس" شكي في عدم وجود أية شوارع ذات اتجاه واحد حول صالة المدينة التي ولدت فيها). بدأ المحاصرون في التدفق واحدًا تلو الآخر، وتحركت الحافلة إلى الأمام وانتظرت معتادي التأخر خمس دقائق، ثم مُدّت إلى خمس عشرة دقيقة، ولم تأتِ، أجل لم تأتِ، هكذا ببساطة، راح يقسم للرئيس بعد أن مرت عشرون دقيقة على الموعد المحدد أنها ستأتي ـراح يتوسل هذا المنظم أو المنسق أو أيًا من يكون من مدعي الأهمية بمبادرات السلام المختلفة، رجل سمين ذو لحية في عمر

أبيه، أحد من خلّفتهم حركة الاحتجاجات قبل الماضية على ما يبدو، يمسك بإحدى يديه مظلته وباليد الأخرى وريقة، كاد ينهر هذا المتغطرس قائلاً إن عليه أن ينتظر الذين تأخروا. أجابه المتغطرس أن واحدة فقط هي التي تأخرت. "لكن "يوتا" استعدت استعدادًا ممتازًا للعملية" "لكن بم سيفيد الاستعداد إن لم تأتِ". تُرى ما الحل مع هذه العقلية المقفلة التي يستحيل تحملها الآن؟ لا بد أن نصل إلى الوزارة في الموعد الصحيح قبل بداية الدوام وإلا فلن يكون للحصار أي معنى. آه لو كانت هناك هواتف محمولة، لكان أرسل إليها رسالة قصيرة، أو اتصل بها، أو أيقظها من النوم، طلب لها سيارة أجرة تقلها من أمام بيتها، ولكن ماذا كان بوسع الفتى؟ لقد مر نحونصف ساعة على الموعد المحدد لإقلاع الحافلة. صعد الفتى إلى داخل الحافلة وهمهم وهو يمر على المنسق المتغطرس الممسك بمظلته: "تبًا لكم بفضائلكم الرخيصة". استقل الحافلة وقد ابتل عن آخره بفعل المطر (كان أحد ممثلي جهاز السلطة من المتعاطفين مع حركة السلام قد أثار فضيحة آنذاك بملاحظة قال فيها إن المحافظة على المواعيد والنظام والانضباط فضائل رخيصة يمكن أن يدار بها معسكر اعتقال).

(٢٦)

في اليوم السادس والعشرين ـ أجل، أكتب كل يوم صفحة واحدة من قصتي كي أعطي ذاكرتي فرصة لترتيب نفسها، وكي أحدد أيضًا طول الصفحة الواحدة اقتداء بمشاهير الشعراء، أحاول اليوم أن أعثر على عنوانها أو رقم هاتفها أو عنوان بريدها الإلكتروني، خاب أملي بالبحث عن اسمها ولقبها، قد تكون تزوجت واكتسبت لقب زوجها، المساواة في الحقوق بشكل أو بآخر، انتهزت الفرصة كي لا يكون لها اسم مثل باقي البشر. لن يجدي إخراج خطابها الآن من السحارة لأقرأ بيانات المرسِل، لأنها عاشت في سكن مشترك لم يعد موجودًا، لأنهم أزالوه مع صف البيوت المجاورة لإنشاء الطريق السريع بالمدينة، الطريق الذي ما زالوا يتظاهرون معًا ضده. يا إلهي، مظاهرات الاحتجاج على الطريق السريع، يا لها من خيبة ويا له من حفل للذكريات. لم يلتقيا مرة أخرى منذ الثانوية العامة التي اجتازتها، وتحديدًا يوم حفل التخرج من المدرسة الذي رآها فيه تغادر بسيارتها مارّة على ظهر سيارة نقل، اتصالاته بلا جدوى، وخطاباته بلا جدوى، وكذلك زياراته التي لم

أنسَها للأسف، ظهر يوم كامل قضاه على الرصيف تحت نافذتها. وبعد أن أمطرته بوابل من اللوم والعتاب كتب لها ردًا، لكنه لم يجرؤ على الاتصال بها ووفر على نفسه الخطاب الثاني. راح يبحث عنها في الحانات، كان قد عرف من شريكتها في السكن أنها انتقلت إلى المدينة الكبيرة، كلا، لم تعطه المرأة الرقم للأسف، ألم يكن لهما معارف مشتركة أستطيع أن أعثر عليهم؟ أعرف على الأقل اسم القرية مسقط رأسها، لا تفصلها عن مدينتنا سوى بعض الجبال. ربما لا يزال والداها يعيشان هناك، تمنيت ذلك وبحثت في الموقع الإلكتروني لدليل الهواتف، عثرت على اسم، بل ثلاثة أسماء في تلك القرية، الأسماء الأولى جميعها لرجال، وقد صارت نادرة في جيلي، لا بد أنها أسماء أبيها وأخويه أو أبناء أعمامه، ولكن ليست أسماء أشقائها. لا بد أنها هربت من عشيرة بأكملها إلى السكن المشترك. ماذا أقول إذا اتصلت الآن، كيف أعرّف نفسي، وكيف أوضح سبب اتصالي؟ وعلامَ؟ خشيت حقًا أن يتذكر أبواها الفتى الذي تعرفا إليه في إحدى المناسبات.

(٢٧)

لم يحسب الفتى أن حالته ستظهر مباشرة في شكل أعراض جسدية، ضربات القلب المتسارعة، والأصابع التي تخبط على مسند الكرسي بتوتر، وجز على الأسنان، وخاصة في الوقت الذي ما زال ينتظر فيه علاقة تستحق اسم الحب. لقد قرأ في الكتب فيما بعد أن الحب لا يخطف العقل ويسبب الجنون فحسب كما حذر ابن عربي، وإنما يعني أيضًا "النحافة"، "طواف الأفكار الملح، والاضطراب والسهد واللهفة، نار الشوق وسهر الليالي". بل إن ذلك ليس كل شيء، بل يرى إن ما يسبب اضطراب السلوك هو الحب الذي يفوّت على الإنسان الفرص كلها، ويفقده اتزانه ويجعله كالأطفال. لقد أرجع الفتى سبب عدم حضورها بالطبع إلى شخصه هو، وليس إلى أي سبب آخر. استثنى كل احتمال لأن تكون مرضت أو راحت عليها نومة، أو خفتت شجاعتها للمشاركة في حصار وزارة دفاع، وظن أنها لم تكن حتى مستعدة لتكرار تجربة الجلوس إلى جواره مرة أخرى ولو لمسافة الطريق بالحافلة، حتى الحرب ضد التسلح النووي لم تعد تهمها بما يكفي لتحمّل منظره، ولا اضطرابات ذلك العهد كبيرة لتخفف عليها مظهره التعس. مرت

اللافتات على جانب الطريق أمام عينيه بسرعة، كأنها ألواح هيروغليفية، كأنها مكتوبة بلغة أجنبية، سمع التنبيهات التي أطلقها "مدعي الأهمية" عبر ميكروفون الحافلة. وصلت الحافلة إلى المدينة، ونزل الفتى منها كسجناء الترحيلات، مستسلمًا لاتجاه سير الآخرين كمن ينتظر دوره إلى حبل المشنقة. وبينما تجلّت سمات الحماس على الناشطين الآخرين، حتى بدوا كأفراد كشّافة خرجوا في مغامرة ـبغض النظر عن أعمارهمـ كان سيجيب هو إن سأله أحد رأيه في المجنون المريض بالحب، بأنه حمار مسن محمل بالأثقال، قطّع ثقل الأحمال جسده: "جسدي هزيل وخائر القوى، وعلي رغم ذلك أن أحمل أوزانًا ثقيلة كل يوم. وإن خلع عني أحدهم البردعة حتى أستريح سينهال عليّ ذباب الخيل ويلتهم الجروح المفتوحة في جسدي حتى أنادي: "يا ليتهم لم يخلعوا عني الأحمال لأستريح". لا أتذكر كيف مرّ الحصار، ولا كم استمر، لا أعلم سوى أن الغضب تملكه عندما أمسكه شرطيان من تحت إبطيه، كلاهما يرتدي خوذة، بديا ضخام البنيان بسبب السترة الواقية، أرادا إبعاده. صرخ كأنه ألقي على جمر مستعر، كأن الأمر له مسألة حياة أو موت، أو ـ لنبقَ في المشهد نفسهـ كأنه الحمار الذي أبى أن يُضرب مرة أخرى، فأخذ يضرب بذراعيه ورجليه حوله في كل اتجاه. وعندما تملّك الشرطيان من يديه صلّب جسده بقوة حتى بدا كاللوح الجامد، ثم أخذ ينتفض بعنف عندما هرع شرطيان آخران لإمساكه من قدميه. كانت النتيجة أنه هو الناشط الوحيد في مدينته الذي لم تتركه الشرطة لدى الحديقة المجاورة لمخرج السيارات بالوزارة، بل اقتادته على الفور إلى

سيارة الشرطة، رغم الاستغاثة المؤثرة التي صدرت عن مدعي الأهمية الذي راح يتوسل الشرطة أن تعتقله هو بدلاً من طفل بريء. لكن الاحتجاج على التسلح النووي سقط في الكارثة الحقيقية عندما أحضره أبوه ليلاً من قسم شرطة العاصمة، فيبدو أن صور المحتج المشاغب التي بثتها نشرات الأنباء الأساسية في ذلك الوقت لم تؤثر تأثيرًا يذكر على التضامن مع حركة السلام داخل جهاز السلطة، فلم يوقف التسلح النووي. ويمكن إلى اليوم العثور على المشهد في موقع يوتيوب بإدخال كلمات (*Hardthöhe*) و(*1983*) و(*Blockade*).

(٢٨)

أدرك أحمد الغزالي ـالذي كان واقعيًا أيضًاـ "أن الحب في الحقيقة عناء خالص، لا يعرف السرية ولا الراحة، إنها مجرد معان مستعارة، لأن كل افتراق في الحب ثنائية، ولا تحدث الوحدة إلا لحظة الوصال، الباقي كله وهم لا علاقة له بالاتحاد."

(٢٩)

بما أن القارئ انتظر تسعًا وعشرين ليلة فلا بد أنه يريد أن يعرف أخيرًا كيف كسب الفتى أجمل قلب يخفق بالسلام في غرب ألمانيا، في الوقت نفسه سيعترف أن الميلودراما ستكون مبالغًا فيها إذا حدثت القبلة الأولى في مظاهرة وسط معركة مع الشرطة أو في فناء أحد السجون. وفي الواقع فلقد سار كل شيء بشكل طبيعي جدًا، بل ربما أصعب مما يتوقعه فتى في الخامسة عشرة، لهذا فعلى القارئ أن ينتظر إلى الغد حتى يشهد القبلة (لقد وضعت منهجًا بحيث تقدم كل عشر صفحات إحدى محطات الحب، عشر صفحات للقاء، وعشر للتعارف، وعشر للمسة الأولى، حتى تتم حكاية هذا الحب الكبير في مائة يوم. سأحكي حتى الصفحة الأربعين عن الاتحاد، وحتى الليلة الخمسين عن الحالة التي يسميها المتصوفون "البقاء في الفناء"، حتى يظل نصف الحكاية على الأقل مخصصًا للقنوط). حلّت العاصفة صباح اليوم الذي تلا عودة الفتى مع أبيه، عندما استدعاه ناظر المدرسة للحضور إلى مكتبه في بداية الحصة الأولى. ليس فقط المشاركة في حصار غير قانوني ـ وقف الناظر

كأنه على وشك أن يضرب الفتى: قد نتحدث لاحقًا يا بُني عن المقصود بكونها "بلا عنف" ـ ليس مقاومة سلطة الدولة فحسب ـ المشهد الذي رآه العالم كله في نشرة الأخبار ـ وضع الناظر كفّه على جبينه ـ لم يكف نواح أبويه ـ وهز رأسه وقال: "هل هناك أوقح من أن تجعل أمك توصلك إلى نقطة التجمع؟" كلّا، ناهيك بأن الفتى تغيّب عن المدرسة، وتوعد الناظرُ الذي لم يثق في صرامة القانون أو واجب الأبوين في التربية بأن يدفع الفتى ثمن هذه الخطيئة غاليًا. وعندما سأله الفتى بخنوع عمّا يقصده بالضبط أجابه الناظر أن مجلس مُدرّسي الفصل سيقرر ذلك، وأشار له ليغادر المكتب. وللقارئ أن يخمن إحساس الفتى في طريق عودته إلى الفصل. كم كان مغمومًا في الحصتين المتبقيتين، وبدا له تهديد الناظر أخف الأضرار، "فأوستراكية" مبادرات السلام المختلفة التي أقيمت بعد أسبوع لم تتعاطف معه ولا حتى مع حسرة والديه، لكن ما شق عليه أكثر من انتقام السماء والأرض معًا، وما أحبطه في الفصل كما أحبطه في البارحة في قسم الشرطة كان اشتياقه لمعرفة سبب تغيب جميلة الجميلات عن الذهاب معهم إلى العاصمة. لكنه نسي السماوات وما فيها عندما تحدثت معه مرة أخرى. راحت عليها نومة صباح أمس. كما أنها لم تشاهد نشرة الأخبار في المساء.

(٣٠)

رغم أني لا أكاد أتذكر الأيام -إن لم تكن الأسابيع- التي تلت ذلك الحدث، إلا أني لا أستطيع إغفالها هكذا ببساطة لمجرد تقاعس الذاكرة، كما أود أن أؤجل القبلة التي أردت أن أسرد أحداثها اليوم إلى الصفحة القادمة على الأكثر. ما زلت أتذكر أن جميلة الجميلات قالت للفتى على هامش الحديث أن بوسعه أن يأتي إلى الحانة التي تعمل فيها إن كان بالمصادفة في مكان قريب ولديه بعض الوقت، كما أتذكر أنه ما سمع ذلك حتى استعد في مساء اليوم نفسه. لقد تقابلا عدة مرات فيما بعد على الظهيرة، سمح لهما تحسن الطقس بتناول الآيس كريم، وإن صح تتالي المشاهد فأتذكر أيضًا أنه رافقها دائمًا حتى باب بيتها الذي شغله السكان لمنع إنشاء طريق سريع بالمدينة. على أية حال، لم تسقط فجأة في هواه كما حدث معه. كانت تكبره بأربع سنوات كاملة، صارعت نفسها كي ترد مشاعر فتى ما زال صغيرًا على الوقوف في ركن المدخنين. يبدو أنه استفاد من مطالبات الجميع باحتقار الفضائل الرخيصة التي ربما تكون قد عدت حماية الفتى القاصر واحدة منها بصفتها صاحبة البيت. لم

يكن لحوحًا، أصبح بين عشية وضحاها ـ لا أقول هادئًا، بل مفعمًا بالحياة شاكرًا للسماء، لطالما كان يشعر أن أمرًا عظيمًا في انتظاره، ولم يرد أن يفسده على نفسه بعدم الصبر. ولو كان قد تكهن أن الشيء العظيم سينتهي بهذه السرعة لما أضاع الوقت في الانتظار. وهذه من النوادر التي تنتجها الذاكرة، مثل صور فيلم ممنتج بلا إتقان: الفترة بين اللقاء الأول والقبلة الأولى تحسب بالأيام، وإن أمعنت التفكير، فعلي أن أذكرأنها كانت أطول من علاقتهما الفعلية، لكني تقريبًا نسيتها، تبدو لي قصيرة جدًا، رغم أني أحس بكل دقيقة بهجة أو نواح سبقتها أو تلتها كرواية كاملة. هذا ظلم من الذاكرة، إنها تؤذينا بحذف مشاهد منها والحط من شأن ما هو هادئ أو رقيق. وهذا يرهقنا في الحاضر الذي نريد أن نتذكره فيما بعد.

(٣١)

هي لم تقبّل، بل قُبّلت. هكذا أحس الاثنان وعنه تحدثا، لقد حدث لكليهما شيء، الشيء نفسه في لحظة واحدة، رأيا فيه معجزة تُشاهد أيضًا في الأفلام التليفزيونية. وإن كان لا مناص من الكذب فسأصيغ بشكل آخر هل أذكر إمكانية أن انطباع كليهما نشأ من التلفاز. ولكن أليس العكس هو الصحيح؟ ما نعتبره مبتذلاً لأنه مصور بطريقة صناعية، ألا يعكس هذا تجربة أساسية مر بها أغلب الشباب؟ سؤال آخر: ألا ينشأ ابتذال أفلام التليفزيون (والروايات والأفلام الواسعة الرواج إلى آخره) تحديدًا من خلال تعميم العنصر المميز، بل والصور النمطية لحُب المراهقين الذي يعرفه الواقعيون مثل ابن عربي معرفة حقّة، ألا يعمم كل هذا تعميمًا فظًّا ويمتدّ إلى التجارب الناضجة؟ ألا يصاحب حالة الاشمئزاز أو الإعجاب التي تخلقها أفلام التليفزيون ذاتها (والروايات والأفلام الواسعة الرواج إلى آخره) واجس عن معرفتنا بالأصل؟ فلم تكن ضفة النهر التي وقفا عندها متقابلين على الأقل منطقة طبيعة خلّابة، إنما قطعة أرض ترابية بين مخزن إحدى شركات الشحن وساحة

انتظار سيارات الزبائن التابعة لمتجر معدات البناء. ولم يوات ذلك لحظة شروق الشمس، ولا ليلة تجلّت فيها النجوم في صفحة السماء النقية، بل ثانية الفسحتين الكبيرتين في المدرسة، عندما توسلت عينا كل منهما عيني الآخر، ونادت شفايف كليهما شفايف الآخر، أعتقد أن الواقعية المفزعة إحدى سمات أفلام التليفزيون، كل هذا لا يهم، فلقد طالت القبلة عمّا قد يحدده المخرجون والمؤلفون والمنتجون، ذلك لأنهم لا يعرفون الثغرة التي بين ثناياها، الثغرة التي انغمس لسانه فيها ولو لملليمتر واحد. وإن لم تكن هي تلك الفتاة لوقعت في حبه على أقصى تقدير عندما ظهر مرة أخرى في إشراقة تفضح حماسًا طفوليًا وشبه انتصار.

(٣٢)

كما ذكرت، فإنني أخمن الشيء الذي أعجب الفتاة في الفتى، لم أجد أية قرينة تعزز ادعاء أن ضحكة السعادة المعبرة التي تنم عن حماس طفولي وشبه انتصار قد أثرت فيها، إذ لم يصدر عنها عبارة أو نظرة أستطيع أن أتذكرها بالتفصيل، ولا رد فعل لا يزال يمّر أمام عيني. لقد تحدثت طبعًا عن أسباب ميلها أو ردت على بعض مجاملاته، يبدو أني نسيت هذا الجانب بأكمله من لقائهما، هذا ما أفسره لنفسي تفسيرًا قد يكون ذا فائدة. بل أخشى أن يكون قد أعطى الحدث الذي عايشاه اهتمامًا أشبع رغبته في اللحظة المناسبة. لهذا فقط أراد أن يرى حبها، من أجل أن يشبع حبه. وقد قال ابن عربي ذات مرة إن المحب يتخيل أن حبه مرتبط بشخص الحبيبة. لكن الأمر خلاف ذلك، فهو لا يرغب بتصرفاته سوى في لقائها أو على الأقل رؤيتها. أما إذا أحب كيان المحبوبة أو وجودها، أي شخصيتها كما هي مستقلة عنه، تعرف طريق سعادتها، فسيكون نغزة الحب إذًا بلا فائدة له.ما زلت أتذكر لحظة المفاجأة حينما تذوقت شفتيها الناعمتين الزلقتين، كأنهما غشاء رقيق

يحوي مادة سائلة. بل وبعد مرور ثلاثين عامًا ما زالت نكهة بلسم شفتيها عالقة بفمي، فصرت لا أمر على رف الكريمات في متاجر المستحضرات الكيميائية دون أن أقف لأتأمل النوع الذي كانت تستخدمه، ما زلت أشمّه بوجداني. أذكر كيف انضم صدراهما في أثناء القبلة إلى بعضهما، والومضات الصاعقة التي أحسها في رأسه تو أن لامس ثدياها المنتصبان جسده. كما أتذكر أنه حرص على ألا تقترب سوستة بنطاله من مقدمة بنطالها، بعد أن انتفخ قماش بنطاله وتقوّس فجأة. ولو عكفت على الذاكرة دقائق لسردت على الأقل مائة انطباع سخيف آخر لا يظهر أبدًا في أفلام التليفزيون (والروايات والأفلام كثيرة الرواج وغيرها)، كثافتها النادرة تجعل من الحب حالة لا أراها أعظم من الوجود المعتاد، بل مركزة تركيزًا أكبر وأكبر على المرء نفسه. ولربما استطعت أن أخمن الصور التي حارت ودارت وتناثرت بخلدها، ولأعرف إن كانت كثيرة مثل التي صالت وجالت بخاطره. إن المحب لا يرى في الآخر سوى أمانيه ومخاوفه الخاصة. هل كان بوسعها أن تُعرض بوجهها من الملل ـ حسنًا، لقد كان مغلقًا عينيه في تلك اللحظات. كان يمكن أن تتصبب عرقًا أو ترتعد أو تستثار، أو تأنّ ضيقًا وتدفعه ليبتعد عنها، كان يمكنها أن تلوّح بيديها دون أن يلحظ ذلك في أثناء التقبيل، لا أعتقد أن هذا التطرف في انعدام المشاعر مجرد سمة من سمات المرحلة العمرية التي توصف عادة بالبحث عن الأنا، وخاصة إن كانت أغلب المشاعر لديك أنت. يقول ابن عربي إنه ليس هناك عادة من يحب المحبوبة لأجلها، بل يحبها لأجله هو دون غيره. هذا هو الواقع دون شك.

(٣٣)

لكن هناك حالات استثناء، العارفين مثل رابعة العدوية التي كانت تجوب طرقات البصرة ـفي القرن الثامنـ حاملة بإحدى يديها دلوًا من ماء وباليد الأخرى مشعلاً، فسألها أحدهم عن مغزى الدلو والشعلة، فأجابته "أريد أن أطفئ الجحيم وأحرق الجنة حتى لا يعبد الناس الله إلا لجماله".

(٣٤)

ورغم القبلة التي أثارت النشوة وألهبت الوجدان وسارت في الجسد مسرى التيار وغير ذلك من الأوصاف فلقد اختلج في نفس الفتى شك في كون تلك القبلة اعترافًا صريحًا بعلاقتهما. لم يرغب في مجرد أن يصبح رفيقها، بل أراد أن يشاهد الجميع أنهما في علاقة. ومن وجهة النظر الصوفية فإن هذا الاستعلاء يضعه ـبلا شكـ في مرتبة بين أدنى مراتب الحب، الحب الذي أنكرته عليه جميلة الجميلات فيما بعد. راح يتأمل كلاهما الآخر طويلاً عقب القبلة، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة كمن اجتاز مقلبًا بنجاح، وبدت ابتسامتها رقيقة وحذرة، على حسب ما كانت تعنيه ابتسامتها، ثم عادا إلى فصليهما دون أن يتبادلا كلمة واحدة أخرى. لقد كانت هي من أطلق ومضة الحضن، حتى إن بدت غير ملحوظة، كما أنها هي التي لم تقف عند ركن المدخنين رغم زحمة التلاميذ ومع أن جرس انتهاء الفسحة لم يرن بعد، أمر عجيب. فكّر الفتى وهو يسير في تؤدة إلى جانب جميلة الجميلات في ركن المدخنين أن وقتًا طويلاً قد انقضى، وأرى أنا أنه مر بأحوال كثيرة خاصة منذ أن رأى السواد يلمع وراء الجفنين المغلقين.

توقف كلاهما بعد عشرين أو ثلاثين مترًا من ركن المدخنين، في نقطة افترق فيها طريقاهما. وإن كان الشغف مرسومًا على ابتسامتها ـعندما أستحضر المشهد في ذاكرتيـ فلم يعد يقدر على أن يداري السؤال الحيران، أو ربما المتوسل في عينيه. ألم يكن إذًا الأسى هو ما رآه في وجهها، الشفقة من أن تجرحه فيما بعد؟ كاد يمسك يدها، على مرأى من طلاب المرحلة الثانوية الآخرين، هذا ما فهمه ـاللعنة على ذلكـ قبل أن يستسلم للوداع الصامت. في مدخل المدرسة راح قلبه يخفق خفقانًا كاد يحطم أضلاعه، تصبب جبينه عرقًا كالمحموم، وعلى الدرج أحس بدوار جعله يتشبث بالدرابزين، ظل هادئًا في تلك الأيام، تأكد واطمأن لحبها: كان قد أصابه الوهم عند ضفة النهر في حالة من السعادة الدنيوية يصعب على العقل تقبلها، تخلو من أي تمزق أو تصدّع. وها قد تملّك منه قلق من أن تكون قد نثرت نعومتها دون قصد في لحظة من الاستهتار تندم عليها الآن. والآن وبعد ثلاثين عامًا مرت أقول إن أفكارًا كثيرة صالت وجالت في رأسها وهي على السلم وفي الردهة في أثناء العودة للفصل، لكن ليس بينها ـبالتأكيدـ فكرة أن تُعرض عنه. أما هو فقد رأى ذلك الخطر على وجه التحديد واقعيًا ـلنقلـ كي نظل في موقع الحدث: مثل احتمال الرسوب في اختبار الرياضيات. راح بين اللحظة والأخرى يفسّر كل انفعال يصدر عن جميلة الجميلات أسوأ تفسير ممكن، كل نظرة، كل حركة، كل الكلمات التي لم تنطقها، بل حتى حركة شفتيها في أثناء التقبيل، القبلة التي أثارت النشوة وألهبت الوجدان وسارت في الجسد مسرى الكهرباء. وعندما سأله زميله في المقعد الدراسي إن كان كل شيء على ما يرام أجاب متلعثمًا: "لا".

(٣٥)

عندما دق الجرس معلنًا بدء الفسحة الكبيرة هبّ الفتى واقفًا وظن أن كل شيء سيتعلق الآن باللقاء التالي. أصر المدرس أن الحصة لن تنتهي إلا إذا أعلن هو عن نهايتها، قائلاً إن على الفتى أن يجلس مرة أخرى، هو وحده من لم يعد يسمع المدرس، أو سمعه ولم يعبأ به، ولّى مسرعًا من الصف الأخير إلى خارج الفصل مارًّا بطاولة المدرس، حتى إن المدرس ـالذي تفهّم حاجة الفتىـ ناداه سائلاً إن كان هكذا دومًا لا يحتمل الانتظار. لا بد أن ذلك التعليق أثار ضحك تلاميذ الفصل، لكن الفتى انتابته حالة انفصال عن الحدث أغشت سمعه تمامًا، سرعان ما اختفى في الردهة، نزل السلم مهرولاً، ثلاث درجات دفعة واحدة رغم الشبشب "البيركنشتوك" في قدميه. وجرى عبر الفناء نحو ركن المدخنين، ولما رأى أن أحدًا لم يصل بعد واصل إلى ضفة النهر الذي بدا مهجورًا. عاد إلى ركن المدخنين، لم يختبئ وراء أي ظهران، وجّه نظرات لطلاب الصفوف الثانوية الذين بدؤوا يصلون الواحد تلو الآخر بدت ساخطة ثم أخذت تزداد يأسًا، وراح يمشي هنا وهناك كأنه مراقب في لجنة اختبارات. وقبل أن يدق الجرس للمرة الثانية غادر ركن

المدخنين كي يبحث عن جميلة الجميلات في كل شبر في فناء المدرسة بذهن متقد لدرجة أنه حدد جميع المواقع المحتمل تواجدها فيها على خريطة في خياله كي يبحث عنها في الخريطة موقعًا تلو الآخر. ولما دق الجرس لم يعد إلى الحصة، بل وقف لاهثًا بجانب السلم. بدا أنه سيترقبها من ذلك المكان، ثم تبع آخر تلميذ إلى أحد الأدوار العليا التي ظن أن فيه حصص تلاميذ المرحلة الثانوية، وراح ينظر في فصول المدرسة كلها التي ما زالت أبوابها مفتوحة، صامدًا أمام وابل نظرات الاستهجان والاستغراب التي وجهها له المدرسون الذين لم يعبأ بوجودهم في الحصة. أما ما تبقى من وقت الدوام فقضاه لأول مرة جالسًا على ضفة النهر.

(٣٦)

يقول ابن عربي إن الله علّم آدم أسماءه كلها حتى يسبّح الخالق بحمد كل اسم يناسبه في الخلق. احتفل آدم بجلال الله وعظمته، ويضيف ابن عربي عبارة تصلح لأن تكون مقدمة لتاريخ الأدب العالمي، "ليس هناك اسم غير مهم، حتى لو كان إناء حيوانات كبيرًا أو صغيرًا، وهذا خلاف لرأي الذين لا يفهمون شيئًا عن عظمة الأشياء." وتجدر في هذا السياق الإشارة إلى حكاية المتصوف المصري ذي النون في القرن التاسع، عندما قال له أحدهم "أخبرني ما هو أعظم اسم من أسماء الله" فأجابه ذو النون: "قل لي أنت أقلها" ثم طرده.

(٣٧)

مع بداية الليل سحب الفتى كرسيًا وجلس أمام البار، ارتسمت عليه أشد علامات الاسترخاء بما قدرت عليه به شفتاه المرتعدتان، لم يغادره إلا بعد أن أغلق بعد الواحدة صباحًا بقليل. كان من المفترض طبعًا أن يكون في البيت منذ فترة، ولكن من يفكر في هذا الآن. لو كان أبوه يجلس إلى جواره أمام البار لما انتبه الفتى لوجوده. إن النظرات التي روته بها جميلة الجميلات في كل مرة تحضر مشروبًا من خلف البار، خمس أو ست نفحات من الحنان نثرتها عليه في أثناء ورديتها بددت كل الشكوك في أن قُبلتها صباح اليوم كانت سهوًا أو ذلة. بدا أنها تتجنب الحديث: وبعكس المساءَين البريئين السابقين اللذين زارها فيهما في عملها لم يستسلما لبعضهما هذه المرة استسلامًا عابرًا لا يزيد كالعادة على دقيقة، فكان قد قال لها في أثناء التحية أنه يريد أن ينتظرها بعد العمل، وحرص على ألا يظهر اندهاشه من عدم اعتراضها. ولا أعتقد أن الكتب تنبئ المؤمن بما هو أعظم وأجمل وأكثر غموضًا مما ينبئ به موعد انتهاء ورديتها. ولنراجع القرائن. لقد فصّل القرآن في وصف الجنّة أكثر من

الإنجيل، فذكر أن هناك عدة جنان، أحيانًا أربع، أحيانًا اثنتان "تجري من تحتها الأنهار"، كما إن أهل الجنة "يحلون فيها من أساور من ذهب، ويلبسون ثيابًا خضرًا من سندس وإستبرق" و"متكئين فيها على الأرائك"، يجري في أنهارها اللبن والعسل. كما يُسمع فيها طرب رقيق حنون تشتهيه أسماع أهل الجنة، وفيها من كل أنواع الشجر المختلفة التي يسترخون تحتها، غابات من الشوك دون أشواك، وأشجار سنط قطوفها دانية. وقصور فاخرة يسكنونها، وسرر مرفوعة يرتاحون فوقها، وقوارير من فضة، وكؤوس من ذهب، وأباريق من البلور، ثم وصف الأطعمة التي تدلل الحلق، وبالأخص التمر والأعناب، بالإضافة إلى اللحم والطير على سبيل التغيير، والنبيذ الذي لا يسكر ولا يسقم، وأنواع أخرى من الشراب "كان مزاجها زنجبيلاً"، بل إن القرآن قد ذكر الطقس اللطيف عندما أكّد لأهل الصحراء أن الظلال ستكون دانية على أهل الجنة. ما كل ذلك أمام السعادة التي تداعب خيال الفتى الجالس أمام البار؟ كلا، بل التي تنتظره، بعد خمس، ثم أربع، ثم ثلاث ساعات، ثم ساعتين، وأخيرًا بعد ساعة واحدة، فور أن تنتهي من العمل. بل إن الطرب السماوي والشراب والطعام أيًا كان والحلي والطقس الجميل لا يغنيه عن قبلة واحدة منها، ولا عن رؤيتها ولمس جسدها العاري. ويقترب القرآن من وصف موقف الفتى في وعده للمؤمن "بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين" وعدًا شهوانيًا بوضوح مذهل، وتذكر سورة الواقعة "الحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون"، وأن أهل الجنة "لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا، إلا قيلاً سلامًا سلامًا". لكن الموسيقى في الحانة كانت على أية حال جميلة.

(٣٨)

لن يصدق القارئ أني أكتب منذ ثمانٍ وثلاثين ليلة عن الحب الكبير الذي عاشه الفتى دون أن أتذكر ولو لمرة واحدة كتاب المذكرات الذي كان بالصندوق مع الخطابات، أو ربما سيصدق فقط لأن الكشف المفاجئ عن المصدر ذي المصداقية سيبدو كما لو كان مصمَمًا لأجل القصة. على أية حال، لا يهم ما سيفكر فيه القارئ عن عرض المذكرات لأنها ستبدو للوهلة الأولى قحلة وغير مفيدة، بل وساذجة إلى حد مخجل. فالعنوان "الحلم والفوضى" المكتوب على غلاف الأجيال التالية بخط مزركش يعبر عن الاستعلاء لدى المراهق، وهو أمر مزعج يكاد يُقرأ في كل صفحة في المذكرات. لا شك أن رسومًا كاريكاتيرية من عصر حركة العاصفة والاندفاع التي تعبر عن تقديس الذات وإعلائها على كل درجات التوسط قد أثرت على الفتى ـ فلم يتبقّ من الأصالة والتألق اللغوي شيء بين أكوام علامات التعجب: "ما أروع هذا الشعور! الشعور بالحب!" أضف إلى ذلك الانطباع اللاموضوعي بأنه أول إنسان تطأ قدمه قارة يعلم العالم كله في الحقيقة بوجودها. لقد

أسماها الساحرة الطيبة، ساحرة الأساطير، بل أسماها حتى "السحورة" تدليلاً، وصف لم يكن ليخطر ببال مؤلفي أكثر السيناريوهات ابتذالا. ليس هناك وصف لأحداث معينة أستعين بها أو أقتبسها لقصتي، كأن الفتى عمد ألا يكتب سوى شعر بخس خالص يمنحني به بعض القرائن كي يساعدني في ترميم الأحداث. لا أتذكر سوى حالات المغص المعتادة في الأعمال الناجحة، المغص أو دغدغة الجوف، ضربات القلب السريعة، القلق واضطراب النفس. أفزعني كيف ننظر بفردية للأيام التي نعتقد اعتقادًا راسخًا أننا عشنا فيها حدثًا فريدًا. ثمة خيبة أمل مشابهة عشتها قبل بضعة أعوام سببتها محاولة إصلاح زواجي، محاولة لم تفضِ سوى لاستنتاج أن الأحاسيس وردود الأفعال، وأنماط السلوك، وحالات سوء الفهم، وفترات الانجذاب، والإحساس بقيمة الذات وصولاً إلى كل صياغة على حدة تتطابق تمامًا مع النموذج الذي يحدده وضعنا الاجتماعي والعمر وطول فترة العلاقة وعدد الأطفال، والدلائل المشابهة. وإن لم يكن زواجي قد انتهى بالفعل فقد كانت صدمة ذلك الاستنتاج كفيلة بتدميره. كما أن تجربة التصوف ليست صنفًا واحدًا ولا تعكس حالة فردية، وإلا لما وضع المتصوفون نظامًا دقيقًا متطورًا نفسيًا لأماكن الوقوف والأحوال التي يتحول الحدث الداخلي في تعاقبها إلى ساحة للوحي. لماذا تحدثت عن المذكرات؟ حتى أعيدها إلى الصندوق مرة أخرى وبسرعة، وعلى الرغم من أن فكرة فظيعة تملكتني باحتمال أن يقرأها إنسان آخر، حتى لو كان ابني الذي سيبحث يومًا ما على ما سيرثه مني إلا أن هاجسًا كان يمنعني من أن أتخلص من المذكرات، ربما

كانت ترمز للحياة ولذلك فهي مهمة. لقد تحدثت عنها لأني أدركت أن الحب الكبير الذي تعتبره ذاكرتي مهمًا لم يستمر أسبوعًا واحدًا، من أول قبلة وحتى الافتراق، لكن مرارة الفراق دامت طويلاً، دامت حتى اليوم، وإلا لما حكيت حكايتنا.

(٣٩)

تبعها بعد أن ودّعت صاحب الحانة وبعض الضيوف الذين ظلوا جالسين أمام البار، سار بجوارها على الرصيف محافظًا على مسافة خطوة بينهما. كانت سيارتها واقفة كأنها موديل تقليدي للعرض، أظن أنها هدية من أبويها، لم تكن سيارة فولكس فاغن طراز "البطة" طَلَتها بنفسها ولا "خنفساء" كابريوليه بما قد يلائم استقلالية الذوق. رغم ذلك لم ير الفتى أن السيارة الأوبل أسكونا "دقة قديمة" ولا طلبها ربط حزام المقعد. لم يتجرأ طيلة رحلة السيارة أن يدير رأسه حتى لينظر لمقبض ناقل السرعة. توالت عن يمينه مصانع كانت تعمل قبل ثلاثين عامًا مضت، وإن لم تكن مصانع، فمخازن ومحال لتجارة الجملة، إلى أن ظهرت بعد فترة قضبان سكك حديدية، وهو ما يعني أنه في منطقة صناعية، لكن الواقع أنه كان فعلا في مركز مدينتها. كل إشارة في طريقه تزيده قربًا من مملكته، وفكر إن كان عليه أن يبادر بحديث جدي، أم يفضل أن يكون حوارًا رومانسيًا حتى لا يرد ببالها أن توصله إلى منزله لا قدّر الله. لحسن الحظ لم تخطر بباله أية عبارة أبلغ من الصمت. أوقفت جميلة الجميلات

سيارتها خلف المحطّة، التي كانت تسكن صفحة الظلام، مثل المصانع والمخازن ومحال تجارة الجملة، وراحت ترقبه بفضول. لم يدرك الفتى إلا بعد عدة ثوان أن عليه أن يخرج من السيارة حتى تضغط على زر قفل باب السيارة الأيمن. وأخيرًا وقف أمام صف المنازل التي فشلت المظاهرات في منع هدمها، على غرار التظاهر لمنع التسلح النووي. سهل عليه أن يعرف منزلها بمجرد نظرة على ملاءات السرير المرصعة بالشعارات، التي كانت تتدلى من النوافذ، وزاد من رهبته أنه كان المنزل الوحيد الذي اتقدت فيه الأضواء، وبالفعل، كان بعض المتظاهرين يقضون ليلتهم في المطبخ مع النبيذ الأحمر والماريجوانا، سبعة أشخاص كلهم أكبر من جميلة جميلات المدرسة، أي أنهم جميعًا كبار. ورأى أنهما إن جلسا إلى هذه الصحبة فستطول الجلسة، لكن الحصة الأولى غدًا تنادي. تمنى أن يفوتها هو دون تفكير، لكنها قد لا تود هي ذلك خاصة أنها في السنة الأخيرة. حاول أن يصلب طوله بعد أن شرب تلك الليلة قدرًا من البيرة لم يشرب مثله من قبل في ليلة واحدة، هذا بالإضافة إلى أرق الليالي الماضية، القلق، ظروف كثيرة متعبة من أجل كشف سر اتحاد الجسدين. إن مجرد السؤال عن إن كان قد ضاجع امرأة من قبل جعل شفتيه ترتجفان مرة أخرى، أما هي فبدأ الدم ينساب في عروقها برقة وهدوء مثل النهير الذي قبلا بعضهما عنده أول مرة، لم تكن متعجلة، لم تكن محتاجة لأن تتفق معه على تفاصيل وأحداث تلك الليلة، كانت تملك خبرة كافية. وبعد ثلاثين عامًا أظن أنها سبقته في صمت، جلست في السيارة في صمت، سبقته في صعود الدرج في

صمت متفادية كل النظرات لأنها كانت محتارة فيما تفعله بهذا الفتى الذي أعجبها لأي سبب كان، لكن عمره لم يؤهله للوقوف في ركن المدخنين. ماذا قد يكون أقل إحراجًا؟ هل فكرت في أثناء صعود الدرج أن تأخذه إلى النبيذ والماريجوانا في المطبخ أو إلى غرفتها؟ أما الفتى فبدت له كراهبة تقرر في اللحظة الأخيرة إن كانت ستسمح له بدخول قدس الأقداس.

(٤٠)

إن سرت على جدولي الذي وضعته دون حذر فلا بد أني سأتطرق اليوم على الأكثر إلى موضوع الاتحاد، الاتحاد ـكما أفكر الآنـ يتألف وحده من أبعاد كثيرة جدًا تجعلني أحتاج إلى أكثر من يوم واحد لأستدعيها إلى ذاكرتي، ربما عشرة. كما إن هناك أسبابًا تركيبية تؤيد مدّ الجدول حتى يصبح الاتحاد في محور الحكاية. فسيتأخر "البقاء في الفَنَاء" فصلاً، بحيث يبقى للقنوط أربعون صفحة أخرى، وبدلاًمن أن أتطرق لموضوع الاتحاد على عجل ودون تفصيل سأنهي اليوم شوطًا يتقدم على معرفة المقدسات في كل الأعراف الدينية، وسأستشهد بابن عربي مرة أخيرة لأوضح القداسة في حدث ربيع عام ١٩٨٣ في جماع شاب وفتاة في مدينة صغيرة في غرب ألمانيا. لقد كتب في "فصوص الحكمة" أن الله لا ينظر أبدًا عندما ينقص شيء موصل، لأن الله في ذاته المطلقة المستقل على العالمين. ولما كانت الحقيقة الإلهية في ذاتها، وليس هناك نظر إلا في عنصر واحد، فنظرة الله في النساء هي الأقوى والأكمل، والاتحاد الأعنف هو الاتحاد الجنسي.

(٤١)

ملاءات تبدو هندية الطراز تغطي سريرًا، يمكن لثلاثة أشخاص، أو ربما أربعة، أن يبيتوا فيه، أو بالأحرى يقضوا فيه الليلة إلى صباح اليوم التالي، ثلاثة صناديق فواكه من خشب الأبلكاش الرقيق مصفوفة بالعرض، ارتصت بها كتبها المفضلة وكتب المدرسة وأسطواناتها، لم يكن هناك مكتب تنجز عليه واجباتها المدرسية، بل مجرد جبل مبني من جهاز كاسيت، وجهاز راديو ومكبر صوت ومشغل أسطوانات، وعلى اليمين واليسار صندوقا سماعات يدويا الصنع مطليان بلون أخضر طحلبي، استعمل الأيسر كقاعدة لأعواد البخور، والأيمن لمطفأة السجائر، بالإضافة إلى رف من الخشب اللين غير المعالج وضع عليه الحلي، وامتلأ بمستحضرات التجميل الطبيعية والأقلام والدفاتر والأدوات الأخرى كافة. وكانت أكوام الملابس أو بعض القطع ملقاة على الموكيت البيج المليء بالبقع، بينما استُخدم كرسي مطلي باللون الوردي كشماعة للثياب، وعلى حافة النافذتين وأسفلهما زجاجات نبيذ فارغة، تخرج من أعناقها شموع بيضاء بدت كراقصات الباليه، أما

الجدران فكانت مطلية بلون أصفر ناري، وعليها صورة لإحدى حفلات موسيقى الجاز وأخرى لحمامة السلام لبيكاسو، التي علقها مئات الآلاف من التلاميذ والطلاب ومحتلّي المساكن في غرب ألمانيا في تلك الآونة، وست شجرات في قصارٍ للزرع، طول الواحدة كطول الآدمي، قد تعطي اليوم انطباعًا بالصوبة ـ هكذا بدت الغرفة التي لم تنبئ فحسب باكتشاف الحب، أو أشبعت تصوره المثالي عن المعمار الداخلي بكل تفاصيلها وصولاً لطقم الشاي "التراكوتا"، وإنما تجاوزت الذوق والرغبة لترمز إلى يوتوبيا سياسية، هكذا، أجل، هكذا بالضبط أراد أن يعيش، "حياة موحشة وخطرة" مثلما تطلب البطاقة البريدية التي كانت على الباب من"آرثر". ورغم أن هذه البطاقة البريدية انتشرت آنذاك بين التلاميذ والطلاب ومحتلي المنازل أكثر من حمامة السلام لبيكاسو، فلم أتساءل قط عمن يكون آرثر. أعرف أن لا شيء من ذلك الوقت ظل عالقًا بالذاكرة الجمعية: وكما أن التصدي للتسلح النووي بدا للمشاركين في المظاهرات الحاشدة في العاصمة آنذاك عصيبًا وانقلابيًا، بل وفي بعض الأيام مهلكًا، أولئك الذين كونوا سلاسل بشرية بمحاذاة الطريق السريع، أو حاصروا الثكنات العسكرية أو وزعوا الورود على رجال الشرطة الذين وقفوا في خوذاتهم الواقية ممسكين بهراواتهم، إلا أن حركة السلام في غرب ألمانيا تبخرت دون أثر مع تطبيق ما يعرف بالقرار المزدوج. ورغم ذلك أقدر العصر الذي بقيت أتذكره بسبب الموضة التي انتشرت فيه، رجال تعمل بالحياكة ونساء يرتدين ملابس فضفاضة، لكن تقديري له يزيد كلما فكرت فيه، لأنه

خلا من شيء واحد: المرح والسخرية. وكما تظهر الأعراف المرتبطة بحكايتي، وللمرة الأخيرة في الغرب، اعتبر حسن النية والحلم والإيثار، بل والضعف، من الفضائل. إن مقولة بشر بن الحارث الحافي الذي عاش في القرن التاسع بأنك "لن تنال الكمال حتى يسلم منك ألد أعدائك" كانت ستنطبق أيضا على اجتماعات جمعية الطلاب الإنجيلية بالاستناد إلى معاهدة وارسو. الماء الرقيق يكسر الحجر الصلب وهكذا، كل شيء تم تفنيده، كل شيء أتى عليه الدهر والزمان السحيق، لكني ما زلت في داخلي أؤمن بذلك حتى يومنا هذا وإن لم يكن بسبب الزمن. لولا نار الحب كرسالة سياسية أضاءت مرة أخرى بعد عشر سنوات أو خمس عشرة سنة من عصر الهيبيز لما وجدت جميلة جميلات فناء المدرسة في قداسة خيال مآتة هذا الرجل الرقيق، إذ يتضح لي شيئًا فشيئًا أن عطيتها المفاجأة كانت تلبية لنداء لحظة تحررية، تفضّل على الرجال فتيً منعدم الخبرة، وأن تقدر معنى السذاجة في البراءة، وأن تجد في الارتباك حالة قوة. وبوقوعها في حبه مرة بدت مصممة على أن تطلعه على اتحاد الجسدين لتذيقه نارًا لم تنطفئ فيه أبدًا. كيف سأتطرق لذلك؟ هاهي لم تسأله إن كان قد ضاجع فتاة من قبل، كانت توقن بذلك. أضاءت الشموع التي راحت تتراقص فوق فوهات الزجاجات واحدة بعد أخرى.

(٤٢)

أتساءل إن كان ابني سيشعر بما شعر به الفتى حينما رأى لأول مرة امرأة عارية متمددة في السرير، خطان متموجان يرسمان خصرها النحيل، فخذاها مضمومان إلى بعضهما البعض، كأنها تراجع نفسها، لكن شفتيها مفتوحتان لتفصحا عن الثغرة الفاتنة بين سنيها الأماميتين، ثدياها المشدودان يرتجفان من الانفعال، يعلوهما برجان قزمان كأنهما ينفذان من قمة جبل، إحدى يديها على بطنها، والأخرى بجوارها حتى تستقبله بحضن، لم تزل شعر جسدها، لم يكن ذلك مألوفًا في تلك الحقبة، اعتُبِر أمراً مخالفًا للطبيعة وعادة من عادات الماضي، رأى الفتى في عانتها وفخذيها وساعديها بل وحتى إبطيها جنّة حقيقية يكسوها العشب والأشجار، أتساءل إن كان ابني سيحس بما أحس به الفتى. ولا يعني هذا أن الفتى لم ير قط امرأة عارية في أحد الأفلام أو على شاطئ البحيرة، فقد كان آنذاك تغيير القميص أو البنطال أو الملابس الداخلية علنًا عند متظاهري السلام أمرًا عاديًا بعد أن تبتل ثيابهم بالماء الذي يفتحه عليهم رجال الشرطة لتفرقتهم، اعتادوا الجلوس في الشمس في

حديقة هوفغارتن في العاصمة بون دون خجل، أو القرفصة للتبول بجانب سير المظاهرة، أقصد النساء طبعًا، بعض الرجال قرفصوا في أثناء التبول تضامنًا. لكن ذلك كان شيئًا آخر، فلم يصدر ذلك العري أية إشارات جنسية، ولو كان الفتى اختلس رغم ذلك نظرة إلى هذه المرأة أو تلك. كان العري تعبيرًا عن الطبيعة البكر ورفضًا تامًا للتمييز بين الجنسين، نددَ به كنوع من القمع الذي تجاوزته الإنسانية. أما العري الذي يتعمد به الإثارة فلا أكاد أتذكر منه شيئًا. وكما قلت، كان هذا النوع مكروهًا داخل الحركة، لكنه لم يبد ظاهرة حديثة جدًا قبل دخول المحطات التليفزيونية الخاصة، أو ربما شاهد الفتى البرامج الخطأ. كما لم تكن المدينة التي عاشوا فيها صغيرة فحسب، بل غلب عليها تفسير حازم للبروتستانتية، وساد في أغلب بيوت الآباء تصور صارم عن الأخلاق لا تقل صرامته عن الثورة الجنسية في باقي البلد. فالمثلية الجنسية مثلاً كانت أكثر من مجرد "قلة حياء"، فحتى بالنسبة لفتى اعتاد رؤية النساء المتبولات ظلت المثلية الجنسية أمرًا يصعب تصور وجوده أو انتشاره في بلد حكاياته المفضلة. كانت المفاجأة والأمر الواقع ليدرك أخيرًا أن معناها الحب بين رجلين. على أية حال، ففي داخل حركة السلام لم تكن تعرف نزعة الكمال والطهارة والعناية بالجسد ـ التي تحولت إلى نظام مستبد، أو ديكتاتورية للإغراء حتى في المدن الصغيرة ذات التوجه البروتستانتي الصارم. أليس ذلك رغبة في إبراز الجسد؟ فلم إذًا العضلات الممشوقة، والجسم الذي نزعت منه كل شعرة زائدة، ودق الوشم على عضلة الردف، بينما لم تكن جميلة جميلات فناء مدرسة

في غرب ألمانيا في عام ١٩٨٣ تحتاج لأي زينة، مثلما كتب الشاعر نظامي عن الفاتنة ليلى "لقد اكتسب اللبن الذي شربته لونًا ورديًا انطبع على وجنتيها وشفتيها، أنجبتها أمها بكحل العين وشامة الحسن." لكن ابني قد يكون لديه من المواد الإباحية على هاتفه المحمول كم يفوق ما رآه أبوه آنذاك. أغثني يا الله، كأني أسمع في حديثي صوت أبي، وربما صوتَ كل الآباء الذين يعتبرون انهيار التقاليد ـخاصة في عصور ازدهار الأدبـ ضياعًا للفروق الطفيفة والتفاصيل، فقرًا ناتجًا عن الامتلاء، نقصًا مترتبًا على الصراحة، تبلدًا ناجمًا عن الإثارة. إنها جدلية الحجاب ذات المكانة المتمركزة في جوهر التصوف: لقد وضع الله الستر والجدران الفاصلة في طريق المجنون لتنضج عينه يومًا بعد يوم إلى أن تصبح قادرة بما يكفي لرؤية ليلى. وهكذا فلا أحب مثل أبي وأجدادي أن أصدق أن ابني قد يعيش موقفًا يشبه ما عاشه الفتى، الذي وقف مذهولاً لدقيقة، ثم دقيقتين ثم ثلاث أمام المرتبة قبل أن تخلع ملابسها أخيرًا.

(٤٣)

في القرن الثالث عشر كتب بهاء ولد ـابن جلال الدين الرومي الذي تكنّ له المطربة الأمريكية "مادونا" كل الإجلال ـ "إن هناك من يرى عوراتك، يراك عريانًا، يرى سوءتك، مثلما ترى المرأة زوجها ويرى الرجل امرأته للمرة الأولى. يريان جميع مناطق العورات، وأعضاء الحياء عن الحبيب، يسعد كل منهما بالآخر، يمشي أمام الآخر وقد زال بينهما حاجز الخجل. وهكذا أنت أيضًا، فالله مطلع على كل أجزاء الحياء التي تحفظها عن أعين الناس، اقترب منه دون استحياء وقل: يا رب، أجزائي كلها لك، كلها كما كانت دائمًا لك، فليس هناك من يقدر أن يختبئ منك."

(٤٤)

أدركت بعد ثلاثين عامًا أنها كانت تعلم منذ البداية أن عليها أن تعطيه مقدّمة في "الحب"، لكنه لم يدرك ذلك، فارتمى فوقها كمن قفز برأسه إلى الماء ثم أدرك أنه لا يجيد السباحة. لا شك أنه تخيل هذا الموقف في الأيام الماضية، بل ورسمه بأدق التفاصيل في أثناء جلوسه على البار في المساء، استعد في خياله لكل المسكات والحركات والأوضاع، لكن لأن جسده غطى جسدها، ولأن عضو حيائه -لنبقَ على هذه التسمية- سرح على بشرتها دون قصد، شعر أولا بفزع من فكرة كيف سيصمد الثواني الخمس المقبلة دون أن يفرغ لذته في المكان الخطأ واللحظة الخطأ. لهذا ما كان منه إلا أن رفع ردفه سريعًا، وراح يقبلها أملاً في أن تسكن إثارته قليلاً بعد أن أبعد عضو حيائه بما يكفي عن عضو حيائها، وانحنى بنفس المنطق أخذ يمشي بشفتيه وأصابعه العشرة على جسدها من أعلى إلى أسفل كفريق عمال النظافة الذين يمسحون الممر الموصل بين مبنيي المدرسة. هذا الجسد الفتّان، الذي أصبح يملكه، يستحوذ عليه -شكّل هذا الاستعلاء وهذه النرجسية جوهر فعلته- تحول الجسد إلى خامة

غريبة لم تستجب لأية من لمساته استجابة تدل على الانبساط، إن لم يصدمه منظر سكونها كجثة هامدة. لا شك أن مهزلة المداعبة لم تصمد طويلاً، أعتقد أن جميلة الجميلات نهضت جالسة بعد أقل من ستين ثانية، يا ربي، أشتاق اليوم لمعرفة رد الفعل الذي ارتسم آنذاك على وجهها، هل كانت تهمهم؟ أو تتأوه؟ أمسكت يديه ووضعتهما على فخذيه، لكي تبدأ معه من "الألف باء". أما الفتى فمرت الدقيقة عليه كدهر تركه الرب فيه وحيدًا كما قد يقول الصوفيون. إنها حالة من الهوس المريع تطرأ قبل أن يلاحظ المحب أنغايته ليست أن"يريد"، وإنما أن "يُراد". حالة وصفها السابقون ببداية المعرفة. وفي الحالات المثالية يتلو الهلع الإجلال، ثم التمجيد، ثم التقوى قبل أن يبدأ شوط الفناء. لقد تملّك الذعر من الفتى حتى إن شهوته انطفأت إلى أجل غير مسمى.

(٤٥)

سأل أحدهم سهل التستري الذي نُفي عام ٨٧٤ إلى البصرة "ما رأيك في رجل يدعي أنه مثل الباب لا يتحرك إلا إذا حركه أحد." فقال "هذا يقوله واحد من اثنين، إما صدوق وإما مهرطق".

(٤٦)

"كن صادقًا"، قالتها بعد أن رأته يربت بأصابعه على فخذه مرتبكًا. تُرى أي كتب أوحت لها بتلك الكلمات؟ قراءات عن النسوية، أم كتب في علم النفس، أم في لاهوت التحرير؟ لا بد أنها كانت كلمات ملهَمة، لكن قوة وقعها على الفتى كانت كقوة أقوال الوحي. أتصور أن كلمة "الصدق" التي لم يفهمها الفتي على ما يبدو فهمًا صحيحًا ـالكلمة التي أشعر بالغثيان إلى اليوم كلما سمعتهاـ شهدت الليلة تحولاً أصبحت بفضله عيدًا تمناه آناء الليل وأطراف النهار، بل في كل الأيام منذ أن التقاها ساطعة فوق الحجر، أمامها النهر الساكن ومن ورائه على الضفة الأخرى الشارع ذو الحارات الأربع، وخلفها الموقد الحجري وقد تناثرت حوله عبوات الجعة وأكياس الهوت دوج الفارغة، وفي الخلفية شاحنات النقل المتراصّة. ليت العبارة التي استوقفتني في المذكرات كانت على الأقل "كن نفسك"، أو يا حبذا لو كانت "كن اللحظة فقط"، لربما استطعت أن أحتمل الحياة بها، بل قد أجد حكمتها في كتبي وقراءاتي الحالية، لكنها قالت "كن صادقًا"، ألم تجد سوى "صادقًا"؟ أتذكر الآن مرة أخرى أنها كررت ـعلى أغلب الظنـ الكلمة

التي حلّت موضة قبل ثلاثين عامًا، وقبلها بالطبع في المدن الكبرى. لم يختلف تأثيرها عن أثر كلمات القادة في الطريق، لم تضف شيئًا ولم تقلل من التجربة سوى بالكاد، بل أعادت فحسب ترتيب جميع المسلّمات. أتصور ـابتداء من تلك اللحظة، يداه على فخذيه، كلمة "الصدق" تدوي في أذنيه ـ أتصور أن الفتى لم يفعل شيئًا مما كان ينتويه، لم يعد يرى الهدف الذي ركز كل قواه في السعي إليه، ألا وهو أن يظهر كفاءته. رد متلعثمًا "حاضر"، هكذا ببساطة "حاضر"، الكلمة التي لم تكن على أي حال أفضل من عبارتها.

(٤٧)

لا أتذكر ولا أرى في دفتر المذكرات أية إشارة تدل على أن أصابعه عادت لتتسلل أو تسرع إلى جسدها أو تحلّق فوقه أو تتهاوى أو تقفز أو تتأرجح عليه، ولا أن يديه سُحرتا بانحناءات ضلوعها أو ربما كتفيها. لكني استطعت أن أنتشل اللحظة التالية من النسيان، الحركة اللطيفة، التي رآها فنّية وأنيقة، إذ سقط جسداهما في حركة لولبية على الفراش بالضبط بحيث كان كل منهما بين أحضان الآخر ودون أن يصدر عن السقطة أي صدمة، رجله اليسرى تحتضن فخذها، شفتاهما شبه متلاصقة حتى أحس بزفيرها يداعب طرف أنفه، عنقوده مسترخٍ فوق عُش حيائها، صدره مضموم لصدرها الأطرى من أي بطانة في الدنيا. وأعتقد أنه هو ـالفتىـ من بدأ يبتسم، بسبب الحركة، أو لنسمة أنفاسها على طرف أنفه، أو إثارته التي بدأت تخرج عن نطاق السيطرة، أو لأنه أراد أن يضحكها ليرى الثغرة بين سنيها، وهي، التي أعلنها منذ الوهلة الأولى أجمل خلق الله، ابتسمت أولاً، ثم بسطت وجنتيها لتبديا ابتسامة عريضة تكشف عن انبساط قبل أن يسقطا في موجة من الضحك

المتلألئ، لم تكن قهقهة رنّانة، بل موجات من ضحك سعادة مكتوم سرت في جسديهما حتى تقوسا بين أحضان بعضهما، جبهته منغمسة في حجرها، وذقنها مستندة إلى ظهره. وإذ دخلا هذه الحالة لم يتوقفا عن الضحك، لكنهما تمكنا من تغيير الوضع ليلتقطا أنفاسهما ثم يدخلا في نوبة ضحك جديدة، استطاعا بجهد أن يتحررا من الوضع، ورقدا على ظهريهما بجانب بعضهما دون أن يشعرا بافتراق. ارتخت العضلات المشدودة شيئًا فشيئًا، وخف ألم البطن، وتحول الضحك إلى لهثات تلاشت بعد تنهيدتين. وكي يضمن أنها لن تنهض من الفراش أو تذهب إلى دورة المياه اختطف يدها وراح يستطلع نشوته في هدوء واسترخاء. لا أدري من منهما من بادر بحركة سقوط جسديهما بالضبط في السعادة. يصنف بهاء الدين ولد نهر خمر الحب واحدًا من أربعة أنهار في الجنة يُجريها الرب في عروق كل جسد. الأنهار الثلاثة الأخرى هم نهر عسل السعادة بين الزوجين المتوافقَين، ونهر لبن التعاطف بين الناس، ونهر ماء الحياة والعلم.

(٤٨)

إن سرت على الخطة التي وضعتها من قبل فلا بد أن أنهي موضوع الاتحاد بآخر سطور الصفحة الخمسين حتى أشرع في الحديث عن البقاء في الفناء، وبذلك سيستحوذ القنوط، إن لم يكن على نصف حكايتي، فعلى الأقل بالقدر الذي فخّمته المذكرات على مدار أشهر. بل إن هذا أيضًا غير منطقي، فحتى المذكرات لا تصور العلاقات تصويرًا مناسبًا إذا كانت تَرثي تجارب وأحداثًا أخرى حتى قبل أن يمر عام على علاقة الحب، قبل أن تصل إلى ذكر جميلة الجميلات التي غادرت مدار كوكبه كنجم يطل من صفحة السماء في ليلة غابت عنها الغيوم. وبتأمل الأمر من منظور خارجي، من منظور رفقائه أو أبويه أو حتى ابني الذي سيعثر في يوم من الأيام على هذه المذكرات ضمن التركة، فقد يعطي الفتى انطباعًا بأن حبه كان مجرد حلقة في مسلسل أو لم يكن مهمًا مثلما اتهمه خطابها الأخير ـأو بالأحرى الوحيد. نعم، أعترف أني لم أرده مجنونًا يرى ليلى في كل ما تقع عيناه عليه، ينادي "ليلى" إذا تأمل حيوانًا متوحشًا، ينادي "ليلى" إذا نظر إلى الجبال، ينادي "ليلى" إذا تطلع إلى

الناس، ويجيب "ليلى" إذا سأله أحد عمن يكون. ولو بلغ حب الفتى هذا المدى لما استطعت اليوم أن أتغنى به أو أن أهجوه لأن الفتى ما كان سيعود إلى الواقع الذي تُحكى فيه الحكايات، كان سيجن كمجنون ليلى، سيصاب بالسكيزوفرينيا بمفهوم علم الأمراض، وسيلقى في مصحة نفسية بدلاً من أن يحترم ويبجل كأمير ولهان. على الفتى أن ينتظم ثانية في المدرسة بعد فترة مرض قصيرة، الامتحانات بعد أقل من شهرين، وبعدها بأربع سنوات سيصبح في الثانوية العامة، وبعدها الجامعة، ثم يكوّن أسرة، ثم يهدم الزواج، ويواصل السير في دروب الحياة، إلى أن يجلس بعد ثلاثين عامًا في غرفة مكتب فخمةيتذكر المرة التي خرج فيها عن سيطرة النفس، حلقة في مسلسل، صحيح، لكن ماذا يكون هيام الشباب استنادا إلى مرحلة في حياة الإنسان؟ أي شيء سوى حلقة في مسلسل. هل وصفه ابن عربي بأنه التشابه والتقارب، وليس مجرد التطابق مع أعراض "استغراق" المتصوف في حب الرب الذي يفيض على كل ما سواه؟ ألم يدرك ابن عربي الفارق؟ لا بد أنه أدركه، وبجانب الحب الإلهي كان قد ذاق أيضًا مرارة العشق الدنيوي مثلما كتب في مؤلفه "ترجمان الأشواق" في ذكر جميلة الجميلات، وكان هو الآخر قد واصل السير في دروب الحياة، تعلّم وعلّم، وجلس في غرفة مكتبه يتذكر. إن الألم الذي سببه الفراق لم يتداو إلا من الخارج، لقد تسلل كالسم أو الترياق إلى أعماق نفسه حتى أن كل بحث منوقتها، وخاصة البحث عن الحبيب الرباني قد حرّكه الشوق خفاءً، ليعيش مرة أخرى ـثم للأبدـ الحلول الذي أظهر كونه أطول من الحب في البداية

والنهاية.. ربما يكون ابن عربي قد اقتحم في طريق المعرفة الذي يفيض بالخيالات عالمًا مجهولاً تعمّق فيه أكثر من أي متصوف آخر ألف كتبًا. أما أنا فلم أمضِ حتى في الشوارع التي ترصفها التقاليد. لهذا فالمقارنة لن تكون سوى بين إناء كلب واسم من أسماء الله. بهذا المفهوم، مفهوم إناء الكلب، صدق الفتى في إنكاره أنه لم يحب جميلة جميلات الدنيا حبًا كبيرًا، وأسار ألم الفراق في أعماق نفسي كالسم أو أكسير الحياة، حتى أن كل بحث منذ وقتها ظل مجرد حنين. كان حريًا بي ألا أهب لليأس والقنوط نصف حكايتي حسب الخطة، فالعلاقة بين الشبع والحاجة ستكون كنسبة واحد إلى ما لانهاية، أو إن لم تكن اللانهاية فأسبوع إلى آخر العمر. وهأنا أتحدث لليوم الثامن والأربعين ولم أجِ بعد إلى موضوع الاتحاد.

(٤٩)

وصف شيوخ الطريقة في العصور الوسطى العلاقة بين الحب الأرضي والحب السماوي بالجسر، ولم يقدروا أي تلميذ لم يحب أحدًا هذا الحب الكبير. فخر الدين عراقي مثلاً، الذي انحدر من "همدان" بغرب إيران وتتبع حبيبه حتى "ملتان" بالهند، روى في القرن الثالث عشر عن المريد الذي اجتاز مرات ومرات اختبار الأربعين يومًا لكنه لم ينَل التبصرة، فأرسله معلمه إلى دكّان للنبيذ تعلّق فيه بامرأة فاتنة أو بغلام. وبعد أن تحمل معاناة نشوة الحب وآلام ذلّة الحب عاد إلى معلمه إنسانًا ناضجًا. لا أزعم أني اجتزت هذا الجسر، لكني أعرف دكان النبيذ جيدًا.

(٥٠)

أين أبدأ، وعلام أقتصر في السرد في صفحة واحدة بحيث أكون منصفًا في وصف انفجارات الانطباعات التي أنعم بها الاتحاد على الفتى، الذي لعب فيها دور المتفرج والمفجّر، وبكل مصداقية بمجرد أن أولج شيئه في شيئها واضعًا نصب عينيه مرة أخرى هدف إشعال لذتها قدرما استطاع؟ تمنى في قرارة نفسه لو كبح جماح شهوته هو، نادمًا على النبيذ الذي أسرف في شربه منذ أن تملكتهما نوبة الضحك، وعلى سيجارة الماريجوانا التي تشاركاها. لم يرد بباله أن الدخان منعه من الانتهاء لحظة الإيلاج. أثلج صدره أن الأمر سار "كالسكين في الزبد"، ما زلت أتذكر التعبير، "كل شيء يسير كالسكين في الزبد"، والإحساس "بالاحتواء"، كلا، ليس إحساس "عضو الحياء" فحسب ـكي نظل على هذا المصطلح الذي اختاره المستشرق المرموق "فريتس ماير" من مدينة بازل على استحياء في دراسته التي أجراها عن بهاء الدين ولدـ بل أن تحتويه بكامل الجسد والروح وكل شيء ليشعر فيها بالسكن والأمان. كانت بحق نشوة أخرى تختلف عن إشباعه السريع لشهوته في سريره تحت

الغطاء، إحساس كأن "الشجر والنبات يمتص الماء والأرض امتصاصًا" مثلما يصف بهاء الدين ولد متعة الجنس والدين "كأنك تستقي الحب من الرب دون كلام أو تذكير أو إحساس". كلا، لم تكن تلك الذروة، بل كادت تكون الذروة، مبكرة جدًا، عميقة جدًا، قصيرة جدًا، تنذر بالوصول وسرعان ما تنقضي. استند إلى المرتبة بيديه واعتلاها بنصفه الأعلى، وقد استشعرعنقود حيائه موجات أخرى من اللذة وهو يواصل دسّه فيها، موجات حاول أن يكسرها بالتفكير في طبيب الأسنان حتى لا يفقد السيطرة على نفسه كليًا. نظر إليها، كيف؟ لا أعلم، فقد كنت أنا هو نفسه، ربما مذعورًا وربما مرتبكًا، أو قليل الحيلة، أو متأملاً ببساطة ذلك الأمر الرائع، بل الذي عبر حدود الروعة. قرر الفتى ألا يتحرك ملليمترًا واحدًا حتى إشعار آخر كي لا يُحدِث زلزالاً جديدًا، بينما كانت هي في انتظار الحركة التالية، وأخذت تستمتع بالتردد والتوقف والتوتر، وأغمضت عينيها وفتحت شفتيها حتى تكشفت الثغرة بين سنيها، لم يُنتظر منها في تلك اللحظة أية توجيهات أخرى، واتضح له، مثلما سيتضح لي، أن الاتحاد لا يمكن أن يُحكى من جانب واحد فقط.

(٥١)

"قال بهاء الدين ولد إن الرب يلتبس شكل النساء وشهوة الرجال. وأن عشق الرجال وذكور الحيوانات يصدر من أنهم يلامسون الرب في شكل المرأة أو الأنثى، في شكل أفعالهم، في القبلات وما أشبهها. وقد يكتسب الرب شكل الرجال وذكور الحيوانات ليلامس الذات الأنثوية، مثلما لامس مريم وكما تتلامس الأرواح الطيبة والشريرة. وقد يتخذ الرب شكل النباتات الخضراء والماء والهواء والأرض، ولا يعلم أحد أبدًا هيئة وطريقة هذا الاتصال، وهذه الملامسة وهذا النكاح"

(٥٢)

يبدو أنها أحست أن الأمر قد انقضى بشكل أسرع مما أرادت، رغم أنه اجتهد في أن يؤخر وصوله للذروة، بل يمكن القول أن جهده انصبّ من تلك اللحظة على تقليل لذته، فراح يحرك خصره بحذر، ليدرك في تلك اللحظة أن الاتحاد الأمثل لا يحدث بحركات التوازن، وأن فتيل نشوة النساء لا يشتعل ببطء الحركة. ماذا كان بوسعه أن يفعل؟ لو كان قد سرّع إيقاعه قليلاً لخرج الأمر كله عن سيطرته من فرط الإثارة. فلقد كان على أية حال مفعمًا بالشهوة، أقصد الحدث، لا أنكر هذا مطلقًا، الذهاب والإياب، الارتفاع والهبوط، الخروج والدخول في الاستضاقة الطرية التي أحاطت عنقود حيائه بنعومة سائلها، وأيقظت خواطر وأفكارًا تسع بحراً رغم أن الفتى لم يقرأ حتى ذلك الحين كلمة واحدة عن اللاتناهي الذي يتحدث عنه المتصوفون. أجل، لقد كان عظيمًا بحق، أو كان يمكن أن يكون عظيمًا لولا أن اختلج فيه خوف شديد من الفشل أمام مخلوقة لا يضاهيها في الجمال خالقها. لا يقول المتصوفون عن ذلك شيئًا، لم يذكروا بذرة الإنزال

المبكر في مجازهم. إلى هذا الحد تصل مقارنة النشوة المنتهية فجأة التي تنقضي بأسى بفعل توتر خارجي أو داخلي يفسدها، لكنها أتت واحتُسبت. يذكرها حتى بهاء الدين ولد الذي أضفى طابعًا جنسيًا على الشعائر بتقديسه الجماع: "يمكن القول أنك ترقد في السجود على بديعة العينين، وتقبلها شفتاك بقراءة آيات الصلاة". من المهانة بل ومن الخديعة أن تنكسر ذروة الشهوة تحت مقصلة إخماد الحاجة قبل الأوان فتحولها إلى العكس. وعن ذلك يتحدث المتصوفون في سياقات أخرى، بحكاياتهم عن هول معرفة الرب، وعن الصراط الذي هو أحد من نصل السيف، على يمينه ويساره هوة الانفصال المطلق، ألا يتطلب السير عليه حركة توازن؟ إنهم يعلمون أن الرب لم يرتب الأشياء بود أو وئام كما قد يراها المحب، إنهم يعرفون حتى مكر الرب وألفوا في ذلك كتبًا كاملة، لكنهم لم يدعوا أن الفتى قادر على اجتياز الصراط. وإن وطئته قدماه فلن يظل فتى صغيرًا، بل سترتسم عليه ـمهما كان عمرهـ الملامح التي ارتسمت على عطاء السليمي الذي سمّاه معاصروه في القرن الثامن الميلادي "العود اليابس"، فقال أحدهم أنه "بدا رجلاً من عالم آخر"، وقال آخر: "كلما لقيته رأيت عينيه تفيضان بالدمع حتى بدا لي كامرأة فقدت صغيرها". كان عطاء يرتعد ويبكي بحرقة كلما توضأ، وعندما سأله أحدهم عن السبب أجاب "أريد أن أعمل عملاً عظيما: أريد أن أقف بين يدي الله في الصلاة." وبالمقارنة فإن الفتى كان حقاً بخير.

(٥٣)

أما هي ـ يشق علي أن أستلهم من طيات بحر الماضي أي تعبير ارتسم على وجهها أو حركة أو صوت أفصح عن إحساسها عندما حرك خصره أخيرًا إلى الأمام وإلى الخلف كما رأى من قبل في الأفلام أو في المشهد الحي الذي راقبه بشغف لدى البحيرة عشية أحد الأيام. لكنه ما لبث أن صاح داخل نفسه بعد ثوان معدودات "يا إلهي، اللعنة، اللعنة، اللعنة" ـ فقد السيطرة على عضو حيائه الذي آثر الاستسلام بصدمات قلائل، معظمها بعد فوات الأوان، أو حتى على سبيل التمثيل وليس للضرورة. وبعد أن حسب أنه سيغمر جوفها غمرًا بل ويمدد فراغها، فها قد ألفى نفسه فجأة يتحرك في الفراغ، أو بعبارة أدق، توقف عن الحركة، وصار يعلق وحيدًا كفرع شجرة منكسر هجرته أوراقه. التقلص بعد التمدد، حقًا هوالقبض والبسط. أيقنت بعد ثلاثين عامًا أن لذتها لم تبلغ قط لا قمة ولا ارتقاء ولا وذروة ولا طابقًا من الطوابق العليا. لكن وقتها، في تلك الليلة التي قضاها الفتى في الغرفة ذات الجدران النارية ـأو بالأحرى في الصباح الباكرـ استولى على بال الفتى هاجس إن كان قد أوصلها نشوتها. على أية حال، لم يكن

الفتى يعي علامات نشوة المرأة، في حين أعلن هو عن لذته بابتذال فاضح فاق الأفلام أو ما شاهده عند البحيرة. ظل مغمضًا عينيه، فاتحًا فمه قليلاً، وأشارت له بضغطة خفيفة بأصبعها على مؤخرته ألا يغادرها الآن، حركت أردافها في كل اتجاه، ربما طوال الوقت، لكنها ملليمترات فحسب لينشأ عن تلك الحركة احتكاك ناعم كنوع من التعزية أو التخفيف من مصاب الفتى، لم يك إحساسًا مبهجًا، كلا، مجرد احتكاك، ثم مرة أخرى إحساس جديد يتبع هذا الاحتكاك، ثم أعتقد أن النوم استولى علي.

(٥٤)

"هيا استيقظ". أحس بخفقان الدم يدق عظام جبهته من الداخل وبصداع في الوقت نفسه، ملّسَتْ على شعره مواسية. "استيقظ، حان موعد المدرسة". كانت قد ارتدت ملابسها وجلست معتدلة على حافة المرتبة، تمد يدها الأخرى إليه بكوب من الفخار صنعته بنفسها. "تأخرنا". نهض جالسًا في الفراش، لكن خفقان الدم الذي أصبح يدق جبهته من الخارج أيضًا ألقى رأسه مرة أخرى إلى الوسادة. تموهت ملامحها، وترنحت الجدران النارية من حوله، لكن ذلك ليس ما دفعه لأن يغمض عينيه، وإنما الخوف من أن ينفّرها بوجهه البائس، فالاعتراف أنه لم يحتمل الخمر والحشيش سيفضح سذاجته مرة أخرى. "عليك أن تنهض، لقد تأخرنا". إذًا فلم تكن جميلة الجميلات تعيش عيشة موحشة أو خطرة لدرجة أنها مستعدة للتغيب عن الحصص قبل امتحانات الثانوية العامة. ألا يمكن أن تتركه هنا ثم تعود في الظهيرة، ومعها بعض الخبز في حقيبتها الجلدية؟ سيغسل الأواني ويستقبلها بالقهوة عند عودتها كأنه يسكن البيت معها. وبينما يجول بخاطره أن يخرج عليها بذلك الاقتراح سبقته هي بقبلة على شفتيه. "استيقظ". هذا

كان كل شيء. القبلة. وعندما فتح عينيه عادت إليه حواسه، فرأى بكل وضوح أنفها المستدق المنحني قليلاً للأمام عند طرفه، وعينيها الخضراوين، وخصلة شعرها التي غطت جبينها، ولمعان "البلسم" على شفتيها، ورأى الجدران الصفراء النارية قد ثبتت أخيرًا في مكانها. لم يعد يهتم بإن كان الدم يدق عظام جبهته من الداخل أم من الخارج. لقد استمتع بالألم كنتيجة أو كتعبير أو كجائزة للجلالة التي أنعمت بها عليه للأبد بقبلتها. "حسنًا، سأنهض الآن" قالها وطوق عنقها بذراعيه ليجذبها إلى المرتبة. "الشاي"، صاحت ضاحكة ولم تتمنع. لن تفرق بقعة وحيدة على الموكيت.

(٥٥)

لم يجرؤ الفتى على أن يحاول أن يودعها بقبلة في مدخل ردهة المدرسة، فوقف متلهفًا ينتظر إشارة حنانمنها قبل أن يكتفي منها بـ"مع السلامة" دون شكوى. استدارت جميلة الجميلات نحوه لدى الباب الموصل إلى قسم الفصول الثانوية لتمن عليه بابتسامة بدت ابتسامة تفصح عن حنان كما قد تدل على شفقة في آن واحد. وعاد إليه الشك وهو ينظف أسنانه بسبّابته، هل كان يعلم حكمها النهائي بشأن الليلة؟ لم يكد الفتى يصل إلى الباب المقابل حتى سمع صوتًا ـ صوت شخص بالغ ـ ينادي اسمه: إنها سكرتيرة المدرسة، التي بدت منفعلة وأمرته أن يذهب إلى الناظر. أودّ لو علمت إن كان هذا الناظر لا يزال حيًا، أو إن فوجئ ذات مرة باسم الفتى في الجرائد، ويتابع من وقتها مسيرته أو يقرأ كتبه، بل ربما يكون عاكفًا على قراءة هذا الكتاب، وهذه الجملة. لا بد أن السن تقدم به، كان يبدو قبل ثلاثين عامًا في بدله شديدة الضيق ونحافته الشديدة كأنه متأخر ثلاثين عامًا، كما بدا قزمًا، كأنه رجل منكمش، اعتاد أن يرتدي رابطة عنق عريضة جدًا، نظراته قاسية قسوة مرهَقة. أعترف أنه كان محقًّا في انشغاله بالفتى الذي انضم إلى قائمة المشاغبين

منذ حصار وزارة الدفاع، وصار يمثل لأبويه معاناة تكاد تودي بهما إلى الجنون: اتصلا هاتفيًا بالمدرسة والدمع يرقرق في عينيهما، يسألان إن كان ابنهما قد ظهر. لكن ألم يستغرب الناظر نفسه فيما بعد من الصيحة المدوية التي وجهها للفتى لدى الباب المفتوح فسمعها كل من في مبنى القسم الثانوي، لقد نهره قائلاً إنه منعدم الضمير، أعلن ثانية أنه سيرفدني من المدرسة، هدد بمكتب رعاية القصّر ورفع يده إيذانًا بالصفع حتى يقر الفتى أين ومع من أمضى ليلة البارحة، مع من مِن التلاميذ الأكبر عمرًا. لوح الناظر بسبابته في اتجاه الفتى مهددًا كأنه يهدد مجرمًا محترفًا:كأني لا أعلم أو كأن المدرسة كلها لا تعلم يا فتى أين تقضي الفسحة في الآونة الأخيرة. أجل، كان سيبتسم بالتأكيد على المشهد الذي لا يمكن أن ينساه في كل هذه المشاكل، وسيهز رأسه بحق عندما تستحضر ذاكرته المؤامرات المعادية للدستور التي اتُّهم بها الفتى. أما أنا فيحضرني في أثناء الكتابة الخوف والغيظ والعناد كأني كنت هذا الفتى بالأمس. كم أنا فخور حتى بعد ثلاثين عامًا بأني لم أبح بسر جميلة الجميلات رغم التعذيب الذي كان في انتظار الفتى. إذ أخذ يتخيل في الأيام التالية أدواتهم، آخذًا الناظر كدليل حي على نظرية أن الانضباط والنظام والقواعد مجرد فضائل ثانوية. ولم أعد اليوم أرى داعيًا للفخر في مغالاة الفتى الذي شعر كأنه معتقل في سجن من سجون النازية، والناظر أحد بلاطجة نظام فاشي يلعب الفتى فيه دور شهيد الحب.

(٥٦)

اعتُبِر الفاشي في شرعهم آنذاك كل من له رأي يغاير رأيهم في القرار المزدوج والتسلح النووي بشكل عام أو الطريق السريع التي تريد الدولة إنشاءه. أجل، كان يمكن تعريف الفاشية بأنها من يعتنق أنصارها رأيًا آخر غير الشباب والكبار الذين يعقدون اجتماعاتهم في جمعية الطلبة الإنجيلية أو يحتلون بيتًا وراء محطة القطارات، كما اعتبر فاشيًا كل من تعامل مع حماية البيئة كقضية ثانوية، أو أُعجب برونالد ريجن، أو أنكر حق المرأة في الإجهاض. كذلك كان ينظر لعدم التضامن مع حركات التحرير في العالم الثالث ـخاصة الثورة في نيكاراجوا ـ كدليل على الفاشية، أو بالأحرى "كنهج فاشي" إن عبّرتُ بالأسلوب اللغوي الرفيع الذي اجتهد الفتى في تعلمه. إن الثورة في بلد قراءاته المفضلة وضعت الفتى أمام مشكلة في التعريف، إذ كانت من ناحية ثورة على الإمبريالية، ومن ثم ضد الفاشية، ومن ناحية أخرى انتهكت معيار السلمية انتهاكًا بينًا بممارستها الإعدام الجماعي واستخدامها الجنود من الأطفال، وهي رسالة اعتبرها من منظوره ضرورة لمجابهة الفاشية. فلم ير

في حمل الثوار السلاح في جنوب أمريكا أي تضارب حسبما أتذكر، وإن رأى تضاربًا فسرعان ما يتلاشى بفعل المظهر السلمي لمقاتلي المعارضة بقبعات "البيريه"، وأشعار الحب لإرنستو كاردينال التي اكتشفها في صندوق فواكه مصنوع من خشب الأبلكاج. كذلك اعتبرحجة هزيمة هتلر على يد إحدى حركات السلام أمرًا شاذًا، مثله مثل سؤال تأنيب الضمير الذي يُطرح على رافضي أداء الخدمة العسكرية، هل كانوا سيرفضون حمل السلاح أيضًا إن شاهد أحدهم صديقته تغتصب في الغابة؟ إذًا فلم يعتبر فاشيًا أو يحتسب على الفاشية من تبنى وجهة نظر مخالفة فحسب، بل كافة النماذج المثالية في الحياة، ومنها الأسرة البرجوازية، والتفكير الربحي، والوعي بالتطور الوظيفي، السيارات المرسيدس التي كان الفتى يكسر نجمتها من غطاء الموتور، بالإضافة إلى بعض الاتجاهات الموسيقية، مثل الموسيقى الشعبية الألمانية "شلاجر"، كأن العام ١٩٦٨ لم يشهد أي انتفاضة، أو أن ثورة الشباب لم تأت إلى مدينتهم إلى حينه، هذا بالإضافة إلى الموقف التحفظي تجاه الآباء والأمهات الذين سُمُّوا "مسنين بالفطرة" لعدم اهتمامهم بما يكفي بالتورط السيكولوجي العميق في الفاشية (كانت السيكولوجيا أحدث المعتقدات على الإطلاق). وفي هذا السياق، ما كان لأبويه ـاللذين انتقلا من موطن كتبه المفضلةـ أن يتحملا آنذاك ذنبًا عن صعود هتلر، مقاومته أو تنحيته. لم تصف شفتاه على أية حال أبويه بالمسنيْن. أخيرًا وليس آخرًا، كانت الموضة تصنف تصنيفًا سياسيًا. أما في مدينتهم ذات الصبغة الدينية الملتزمة، حيث كان الأولاد يصففون شعرهم تصفيفات

كلاسيكية جدًا ويرتدون بناطيل فضفاضة ذات ثنيات، والفتيات يضفرن شعرهن ويرتدين تنورات تصل إلى الركبة، خاصة في تلك المدينة كان سيُنظَر إلى قطاع كبير من السكان على أنهم فاشيون أو فاشيون محتملون لمجرد شكل ملابسهم إذا لم يكن هاينريش بُل وأبطال حركة السلام الآخرون من الجيل القديم قد شاركوا في حصار معسكر الجيش في مدينة مولتانغين مرتدين تلك البناطيل والتنورات. أما البدلات الرمادية الضيقة ورابطات العنق العريضة فلم تُعط أي عذر، ومن يعترض طريق الحب، حبه الكبير، فلا بد أنه نازي. همهم الفتى ببيت من أبياته المفضلة في أشعار حافظ وهو يغادر مكتب الناظر مرتعدًا من الارتباك: لا تنخدع بظهورنا المقوّسة، فالقوس قد يصوّب نحو عينك.

(٥٧)

لما اشتد بأبي المجنون وأقربائه اليأس أخذوه إلى مكة كي يطلب من الله أن يخلصه من جنون الحب، فبكى المجنون أولاً، ثم ضحك، وشبَّ جسده إلى الأمام كرأس الأفعى، وراح يضرب بقبضتيه على باب الكعبة ويصرخ: "أجل، لقد بعت حياتي للهوى ـ أنا هو ـ ولعلي أظل دومًا عبدًا له. يقولون إن علي أن أفترق عن الحب لأن هذا سبيل الشفاء. لكني أستمد القوة، وأستمد العافية من الحب وحده، وإن مات الحب فسأموت معه. إن فطرتي تلميذة الحب، وليس قدري سوى الهوى. يا ويل القلب الخالي من الحب. لهذا أدعوك يا إلهي، وأتوسل إليك بعظمتك: دع الحب يزيد في فؤادي ويفيض، اجعله يدوم ولو فنيت أنا. اسقني من هذا العذاب ولا تحرم عيني نوره. ولإن سكرت بنبيذ الهوى فزد سكرتي. يطلبون مني أن أنزع من قلبي شوقي لليلى، لكني أرجوك يا ربي متضرعًا: زد شوقي إليها، خذ ما تبقى في حياتي وزده إلى عمر ليلى، ولا تجعلني أسألها ولو شعرة ولو أنحفني العناء وجعل جسدي كالشعرة. فلتعاقبني وتربِّني كيفما شاءت، ولكن ليملأن نبيذها قدحي

أبدًا، ولا يظهرن اسمي إلا مقترنًا بوسمها. باتت حياتي شهيدة حسنها، يُهدر دمي لأجلها دون عقاب، ولا يمرّن يا ربي يوم في عمري دون هذا العذاب وإناحترقت كشمعة في نار حبها. اجعلني أحب يا ربي، أحب لأجل الحب دون سواه، واجعل هذا الحب مائة ضعف، بل ألف ضعف، وزده وأفضه عمّا كان."

(٥٨)

فكّر الفتى في أبويه، لم يرد أن يزيد قلقهما عليه، فتسلل إلى موقف الدراجات بدلاً من أن يعود إلى الفصل ممتعضًا. وهدأ من روعه حديث الناظر في الهاتف إلى والديه وإبلاغهما أن ابنهما بخير، سيعود إلى المنزل بعد الظهيرة أو على المساء بحد أقصى، وسيحتمل بركان غضب أبويه عن طيب خاطر ثمنًا لحبه. لكن شق عليه الآن أن يعود إلى الحصة كأن شيئًا لم يحدث ـ فما حدث كثير، بل أكثر مما حدث في حياته كلها. الليل وظلامه ولحظات ابتسام القدر، والمساء الذي قضاه قبل تلك الليلة في الحانة يفترسه لهيب الشغف، والظهيرة التي انتابه فيها خوف لم يعرفه من قبل، والضوء الدامس من وراء الجفنين المغلقين لدى ضفة النهر، ثم هاهو الآن... ماذا أسميه؟ لا أقول تهديدًا بالتعذيب، لكنه على أي حال تهديد بالعنف، هذه الدوامة التي يدور فيها منذ أربع وعشرين ساعة، أو بالأحرى إحدى وعشرين ساعة بدأت من الفسحة الثانية. أيعود إلى الحصة ويكمل حل تمارين الحساب؟ اشترى في طريقه إلى محطة القطار زهورًا حمراء للجميلة، وزجاجة شامبانيا، وخبزًا وجبنًا ومعجون شيكولاتة لرفقاء السكن. وعندما استجاب أحد ساكني المنزل

للجرس وأطل من النافذة صاح الفتى قائلاً إنه هرب من المدرسة بسبب نشاطه السياسي، ولا يستطيع الآن العودة إلى "المسنّين"، لأن أوغاد الشرطة يبحثون عنه لا محالة، ولا يعرف الآن أين يذهب. أربع كذبات بينات دفعة واحدة. النبرة الحادة التي اكتنفت صوته كانت طبعًا مقصودة، المهم أن الباب فُتح، الباب المؤدي إلى السرير الذي كان حريًا به أن يلزمه صباح اليوم مهما حدث. همهم الساكن المخمور "حسنًا، اصعد الآن".

(٥٩)

رغم أن ثلاثين عامًا مرت ما زلت أجد حرجًا في الإقرار بأن الفتى لم يكن قد غسل طبقًا من قبل، فالأم هي من تولى مهمة غسل الأواني، وإن أتاها عون فمن البنت، ولم يكن الرجل قط ضمن المعادلة. ولم يقتصر هذا الوضع على أسرتهم، الأسرة ذات الأصول الأجنبية، بل ساد في أسر أقرانه في الفصل ممن تولت أمهاتهم أعمال البيت برمتها. ولا أستطيع أن أقطع إن كان هذا الشكل السلطوي في توزيع المهام معتادًا في غرب ألمانيا كلها أو إن كان راجعًا إلى الصبغة الدينية بمدينته. ربما كان لهذا علاقة بالطبقة البرجوازية التي انتمت إليها غالبية تلاميذ المدرسة. هذه الخلفية مهمة فقط لفهم قوة أثر اللخبطة في تنظيم الجنسين وراء محطة القطارات. لقد كان على أية حال زمنا أو وسطًا ساد لدى الرجال فيه نزعة إجرامية، بل يمكن القول صراحة، نزعة فاشية يمكن تشبيهها بالذنب الأزلي في كل الأحداث، في الحروب طبعًا، وفي التسلح النووي، وربما في انهيار العالم المترتب على ما يعرف بالقرار المزدوج. وثمة كتاب حقق مبيعات كبيرة، الكل قرأه، عنوانه "موت أمير أسطورة"، عنوان لا يبدو أكثر ابتكارًا من عنوان مذكراتي. تحكي المؤلفة

بأسلوب سردي سيرة رجل لم يتفاعل مع حبها مثلما تمنّت، ومن ثم جرحها وكان في رأيي أحمق، بل وجسّد "الذكورة" تجسيدًا يعبر عن كونه دنيئًا. ووضعت الكاتبة في الصفحة الأخيرة صورة لباب بيته أو نافذته مع العنوان، وكتب عليها بالألوان الرش: "هنا يعيش عدو للنساء". أثر هذا فيه. ورغم أن الفتى لم يكن قد خذل امرأة من قبل إلا أنه شعر بنفسه مقصودًا بالعبارة، يرافقه إحساس بالذنب كإحساس الرجال المتضامنين مع النساء، الذين يقرفصون عند التبول عندما لا يكون هناك مرحاض. وعاد الساكن الثمل مباشرة إلى فراشه بعد أن رحب بالفتى، الذي شرع بالعمل، فبدأ بإزالة الصحون المتسخة التي تكوّمت على جانبي الحوض وطاولة المطبخ. بدا نظام الجنسين في هذا السكن المشترك ملخبطًا وفوضويًا لدرجة أن النساء لم تشارك في الأعمال المنزلية. هذا لحسن حظه: فعندما عادت جميلة الجميلات إلى المنزل، الذي لا أزعم أنه كان يبرق من النظافة، وإنما كان نظيفًا ومرتبًا بشكل لم تعهده من قبل، وعندما تطلعت إلى طاولة المطبخ التي أُعِدّت لفطور ثانٍ، الشموع التي راحت تتراقص فوق أعناق الزجاجات متجاهلة الزمن، وباقة الورد طويل السيقان، الذي اتخذ من الجردل البلاستيكي مزهرية له، وعندما قابلت الفتى فرحًا بين شركائها في السكن الذين أخرجوا الشامبانيا من الثلاجة تو وصولها، عندئذ طبعت جميلة الجميلات بشفتيها قبلة طويلة على شفتيه، وأخذته بعد الإفطار مرة أخرى إلى غرفتها، فلم يرهما أحد حتى المساء، لكن الجميع سمعهما.

(٦٠)

كتب ابن عربي في "الفتوحات المكية" إن الحبيبين يتنفسان بمتعة داخل بعضهما عندما يشبع شغف الحب في الحدث" "وتعلو التنهيدات العميقة، وتنطلق الأنفاس بحيث تشكل في المحب شكل الحبيب. أما الأصوات المتتابعة التي سمعت في المطبخ، بل وبلغ وقعها محطة القطارات، فكتب أن الهمزة والهاء في اللغة العربية حرفان من السواكن ينشآن ويخرجان من محل عميق في الجوف يجاور القلب مباشرة، كما إنهما من الأصوات الحنجرية، بمعنى أدق أصوات من الصدر، لأن الهمزة والهاء هما الساكنان اللذان يكونهما أي كائن يتنفس في حالة الطبيعة. وترتبط التنهيدة العميقة التي تخرج من المحب ارتباطًا مباشرًا بالقلب، المحل الذي تنطلق وتتسع فيه حركة النفس. وعن التقبيل كتب ابن عربي أن كل من المحبين يتنفس لعاب الآخر الذي يتسلل إليه عندما يتبادلان القبل. فنفس الواحد ينتشر في الآخر عند التقبيل أو المعانقة، ويجتاح النفس الخارج كلاً من العاشقين اجتياحًا. وكتب عن مصدر النفَس إنه عندما يتخذ العاشق حسب الحال شكلاً، فإنه يحب التنهد،

لأن تيار اللذة المنشودة يسري في النفس الخارج. يفر هذا النفس العميق من مصدر الحب الإلهي ويجتاح المخلوقات، بذلك يريد الصادق أن يوحي لهما أن يعرفاه. كما يجدر العلم أن اللغة العربية تشتق الكلمتين"نَفْس" و"نَفَس" و"تَنَفُّس" من جذر واحد "نَفُس" وتربطها بينها ربطًا مباشرًا في وعي المتكلم والمستمع. ومثل ذلك "الرحمن" و"الرحيم"، الكلمتان المقترنتان أبدًا، وكذلك "الذِّكر" و"الذَّكر"، و"الكلام" و"الكلْم". وعن النشوة قال، ليس ابن عربي، بل شهاب الدين السهروردي، المتوفى عام ١١٩١ بالسجن في حلب، إنها تكمن في أن "الأنا" لم تعد تدرك جوهرها لأنها غارقة في إدراك أمر الابتهاج. وإذا فقدت إدراك الجميع ما عدا حبيبها ولو بالفناء، فهذا إذًا المحو والإبادة.

(٦١)

إن تابعت الخطة التي وضعتها وأكثرت في تعديلها، التي لن تمنح "القنوط" سوى ثلاثين صفحة، فعلي أن أ لج فورًا إلى موضوع "البقاء في الفناء" الذي سيحتاج وقتًا أطول مثلما يتبين من وصف الحالة، والذي أثبت أنه أغنى وأكثر إثارة، بل وأعتى من الاتحاد نفسه. لقد أتم ابني اليوم عامه الخامس عشر، وبعد المناوشة الصباحية في يوم عيد ميلاده أتساءل، أتساءل بإلحاح إن كان ذاك الفتى اللطيف الذي أدار المفتاح في قفل الباب بهدوء وحذر آملاً أن يكون أبواه قد ناما، قد يكون ـهو نفسهـ فتىً مقرفًا بغيضًا في وضح النهار. وبالأمس أيضًا، لم يتصل طوال اليوم، ولم يرد على جواله، ولم يجب رسائلي القصيرة، إلى أن سمعتُ باب المنزل يُفتح على الساعة العاشرة ليلاً، فهرعت إلى الطرقة حتى أستقبل ابني بكل ود رغم كل ما حدث، لكنه حيّاني بـ"أهلاً" كان زفير التنهدة فيها أعلى من حروف الكلمة، ثم هرع إلى غرفته. أسرعت وراءه، أريد أن أسأله على الأقل عن حاله، وأين كان، وإن كان جائعًا، لكني ما كدت أكمل عبارتي حتى قاطعني بفظاظة آمرًا أن أغلق

الباب خلفي. إلى متى سينبهني أن أغلق الباب حتى لا يتسرب دفء الغرفة إلى الخارج. "يا منقذ الكون" قلتها ساخرًا في نفسي حتى لا يعكر الشجار صفو عيد ميلاده الوشيك، وكتمت بداخلي واقع أنه يترك الباب مفتوحًا والمدفأة موقدة عندما يغادر المنزل، وتجاهلت واقعًا معتادًا أن المنشفة أصبح مكانها الأرض بعد أن استخدمها مرة واحدة، تفاديت كل ما هو واقع معتاد وتنازلتُ حتى عن توجيه العتاب له بأنه لا يفكر سوى في رفاهيته بينما كنت أحاول وأنا في الخامسة عشرة أن أنقذ العالم، ويشهد "يوتيوب" على ذلك إلى اليوم. تجاوزنا ما تبقى من الليل في جو ساده الاضطراب أكثر مما ساده الارتياح: عكف على تناول طعام الغداء الذي سخّنته له، مرفقاه ثابتان على الطاولة، لا يرفع عينيه من الطبق، يجيب بنعم أو لا على كل سؤال يبدأ بكيف أو لماذا، ثم مد يده ليلتقط الجريدة من الكرسي بجانبه. رحت أتأمله بتركيز لدقيقة أو دقيقتين وهو يقرأ صفحة الرياضة قبل أن أنهض وأهرع إلى غرفة مكتبي. "ضع طبقك بنفسك في غسالة الأطباق". بعد نصف ساعة أريد أن أقول له على الأقل "تصبح على خير"، لكني أدركت من ثقب المفتاح في الباب أنه أطفأ النور، فلم أجرؤ على دخول غرفته. "ألا يكون ذلك كله بسبب فتاة؟" فكرت واستعدت السيطرة على نفسي بعد أن قرأت الستين صفحة السابقة، لأني أنا أحببت للمرة الأولى حبًا كبيرًا. عاد إلي شعاع الحنان عندما أعددت له فطيرة الشوكولاتة التي يحبها، فهو في النهاية ابني، وفي مرحلة سنية صعبة، الأبوان مطلقان، بيته مقسم حسب أيام الأسبوع. ثم في الصباح، استيقظت دقائق قليلة قبل موعدي

المعتاد كي أحضر لصاحب عيد الميلاد طبقًا من الشوفان بقطع الفواكه مع كوب من العصير الطازج. "أنا تأخرت" نهرني بغلظة عندما قابلني في طريقه في الطرقة، وأجاب على استفساري المستعجب لتصرفه بأنه على موعد للإفطار في مقهى "ستاربكس" لذا فسيغادر المنزل اليوم مبكرًا قليلاً عن المعتاد. صرخت فيه أن لماذا لم يخبرني بأمر هذا الموعد، وأشرت إلى الطاولة التي تفننت في إعدادها وتزينها فطيرة الشوكولاتة التي يحبها. وبعد مرافعة قصيرة رحت أصيح كمجنون ليلى لدى الكعبة. ولكن أليس هذا أيضًا دربًا من الجنون يلهبه الحب؟ عندما يندلع شجار في السابعة صباحًا في طرقة منزل بسبب فطيرة شوكولاتة، وتنثر حناجر المتخاصمَين أقذع الشتائم والإهانات وتتصلب عيونهما عندما يحدق كل منهما في الآخر تحديًا وغضبًا، فيحاولان السيطرة على نفسيهما، أو على الأقل أنا، كي لا تمتد الأيادي. لو أن أحدًا كان قد رآني وصوّر وجهي عن قرب خلسة ونشر المقطع على يوتيوب لحسبني العالم كله مجنونًا أو ملبوسًا، أو أبله إن انحرفت الكاميرا إلى فطيرة الشيكولاتة. لم يحكِ أحد من قبل قط عن الحب الكبير من منظور الأبوين، أبوَي الفتى أو الفتاة اللذين لم يصبحا أبطالاً كليلى والمجنون. قد أكتب بعد ثلاثين عامًا عن الرجل، الأب الذي أحب حبًا أكبر في وضح النهار. وسيصبح ابني إن شاء الله رجلاً وأبًا في المستقبل. أما الهدايا فلم يمسسها حتى عندما أغلق الباب بعنف وهو يغادر المنزل.

(٦٢)

فتح الفتى الباب أولاً فتحة بسيطة، إلا أن الباب سرعان ما فُتح من الداخل إلى آخره ليشاهد الفتى أباه واقفًا أمامه قبل أن يمطره بوابل من الأسئلة: أين كان منذ ظهر أمس؟ عند من نام ومع من قضى الليلة؟ "شاهد كيف تبدو الآن". ثم ما لبثت أن حضرت الأم أيضًا، لكنها على الأقل سألت عن حال الفتى، وإن كان جائعًا فتعد له الطعام. هرعا من السرير نحو الباب فلم يرتديا حتى "الروب"، بكَرات التصفيف لا تزال في شعر الأم. وبينما راح الأب والأم يضخان الأسئلة والتعليقات في رأسه انتبه الفتى إلى أن ألوان ونقوش البيجامة التي يرتديها أبوه تشبه الأغطية هندية الطراز التي داعب تحتها جميلة الجميلات قبل أقل من ساعة، أما النعلان الجلديان فرآهما "فاشيين" قليلاً. عندئذ خفض الفتى بصره إلى الأرض بعد أن اختطف نظرة إلى الوجه المستشيط، الذي تطايرت منه الشرر وفاح منه دخان الغضب. لقد أدرك إذًا مدى غضب أبويه دون أن ينظر إليهما، لا بد أنه استمع إلى كلامهما، وليس من حقه أن يهون من شأن قلقهما عليه، رغم ذلك فكأن جدارًا من الزجاج كان يفصله عنهما، فلم يكن لكلامهما أي نفوذ عليه، لقد شعر بذلك

عندما كان ينظر لنعلي أبيه الجلديين. أبوه الذي استطاع أن يربط أي مسمار ويفتح أي برطمان مربى، ويُجن غضبًا ويبكي، الذي لا يصيبه التعب وليس بمقدوره البقاء في مكانه دقيقة واحدة دون عمل حتى في الإجازات، حتى ذلك الأب الوقور القوي النشط لم يعد له سلطة عليه. "ماذا يقدر أن يفعل؟" هكذا فكر الفتى ثم نظر لأبيه في عينيه اللتين بدتا في تلك اللحظة مرهقتين. "ماذا بوسعك أن تفعله في أسوأ الأحوال؟ ستقطع عني المصروف؟ لا يهمني. هل ستضربني؟ اضرب إذًا. هل ستطردني من المنزل؟ بكل سرور" لكن الفتى انصرف إلى غرفته أسرع مما توقع، بعد خمس أو عشر دقائق إن صح تقديره. لم ينجح تهديد أبيه بالحرمان من الخروج من المنزل بقية الأسبوع، ولا حتى إلى المدرسة إن اقتضى الأمر، ولا دموع أمه التي شكت في تعاطيه المخدرات، في أن تجعله يفشي حرفًا واحدًا عن السر. فكّر الفتى وهو يلقي نفسه إلى سريره (هل كانت نشوة الإحساس الذي عاشه تحت الأغطيه الهندية لا تزال ترافقه) فكر وقال في نفسه "فليحبسني إذًا، لا أظن أن المُسِن سيضع قضبانًا من الحديد على النافذة." إذًا فلن يموت الفتى في السجن.

(٦٣)

عندما اتخذ الفتى طريقه في الفسحة الأولى إلى ركن المدخنين لم يحرك مشاعره آنذاك سوى سؤال أضحى بعد ثلاثين عامًا سؤالا هامشيًا: هل كانت جميلة الجميلات مستعدة أن تبوح بصداقتهما في فناء المدرسة أيضًا وليس على ضفة النهر أو في الحانة فحسب؟ هو نفسه أدرك بعد ثلاثين عامًا مضت على الافتراق ضعف ثقته بنفسه. أما أنا فأظن أن الأنانية كانت السبب، ظهرت مبكرًا جدًا ودون أن تلاحظها جميلة الجميلات منذ البداية وباتت وبالاً على أكبر حب. كان حريًا به أن يبقى على سلوكه وطريقته، رزينًا وشاكرًا لعناية السماء، غير مُلحّ ولا دبِق، كان حريًا به أن يعود للوقوف بين أولي المناكب العريضة، بل لا أمانع في أن يختلس منها بعض نظرات الحنان. ماذا كان سيخسر؟ لكن أمورًا أخرى راحت تداعب خياله، تجاوزت تقبيلها وعناقها أو إمساك يدها على الأقل لمجرد التحية، أو حتى الوقوف إلى جوارها والحديث إليها بثقة تجعل التلاميذ جميعهم يستنتجون العلاقة بينهما التي تستحق اسم الحب. ليته تعلم من حبيب العطار الذي ابتعد كل البعد عن الظهور مع حبيبته

أمام الناس، بل أبى حتى أن يراها. وعندما سئل هذا العاشق عن السبب أجاب: "إن هذا الجمال أسمى من أن يحق لي أن أنظر إليه". وكما ذكرت، لم تلحظ جميلة الجميلات في تلك الفسحة شيئًا. وقبل أن يسلم عليها أشارت برأسها في اتجاه المدرس الذي كان من أشد مدرسي المدرسة وطأة، وهمست: "ج ط إ". فهم الفتى الاختصار الأكثر غموضًا وسحرًا من طقوس وفلسفة القبلانية. سيقابلها مساء اليوم في جمعية الطلاب الإنجيلية. توجهت جميلة الجميلات مرة أخرى إلى التلاميذ الآخرين، ارتسمت على وجهها ابتسامة كشفت عن الثغرة بين سنيها. الجنيد البغدادي، أشهر متصوفي بغداد في القرن العاشر الميلادي، أراد أن يخالف أوامر الله حتى لا يرى الله: "لإن أمرني أن أنظر إليه فسأقول: لن أنظر إليك، لأن العين في الحب ليست إلهية، وغريبة على الله".

(٦٤)

هل كانت حقًا بهذا الجمال؟ لما سمع هارون الرشيد عن حب المجنون أراد أن يرى هذه المرأة الفاتنة. وعندما حضرت إلى القصر وجدها الخليفة مليحة غير مبهرة الحسن، فنادى المجنون وقال له "إن ليلى هذه التي سلبتك عقلك ليست جميلة أبدًا. سآتي لك بمئات أجمل منها." فرد المجنون "إن جمال ليلى غير منقوص به، لكن النقص في عينيك أنت. فإدراك الجمال يحتاج إلى عينين عاشقتين كعينيّ أنا."

(٦٥)

اجتمعت ذلك المساء بجمعية الطلاب الإنجيلية حركة مبادرة المواطنين، التي تألفت من أفراد حركة السلام أنفسهم تقريبًا، لكنها هدفت إلى منع إنشاء الطريق السريع. ومع ذلك كان وصف الحركة بـ"مبادرة المواطنين" طريفًا في زمن لم يعطِ الشباب ذوو الشعر غير المصفف والكنزات الكثيرة الألوان انطباعًا بطابع الطبقة المتوسطة. فعبّر الرجال بإبر الحياكة عن رفض نظام الجنسين السائد، بينما أظهرت النساء بارتدائهن الأوفرول اللامتناسق احتجاجهن على الاستغلال الجنسي. حُفِظ التوازن البيئي للكرة الأرضية على أفرش أحذية طبية مبطنة، وعُرضت أفضلية كل ما هو طبيعي بجوارب صوفية صنعت بألوان طبيعية، كما تم مقاومة سيادة الحسابات المنطقية بالإحالة الدائمة إلى صوت الشعور الذاتي. ووصلت معاندة روح العصر عند البعض إلى معارضة فصول السنة والسير حفاة. وعندما وصل الفتى قبل الاجتماع بنصف ساعة وجد الصالة مغلقة يسكنها الظلام خلف النوافذ، فاضطجع على الأرض في المدخل مادًّا ساقيه، راح يحلم بأن جميلة

الجميلات أول من وصل من أعضاء الحركة، يخفق قلبها هي الأخرى شغفًا وتلهفًا، وبقبلة واحدة يتفق الاثنان على أن يؤجلا إنقاذ العالم هذا المساء. وعندما يجلس إلى جوارها وهي تقود سيارتها باتجاه محطة القطار، تغطي يده ظهر يدها على ناقل الحركة، تملّس عليه بحنان وتعانقه، مشهد رومانسي كلاسيكي المختلف فيه هو أن الجالسة خلف مقود السيارة امرأة متحررة. لم تكن هناك ضرورة للكلمات، بل على العكس، فالسكوت يزيد الإثارة وقد يدفعهما إلى إيقاف السيارة لدى أي بقعة مظلمة في المدينة، مدخل خدمة توصيل أو موقف سيارات الزبائن، فينقضان على بعضهما كتيار جارف مثلما شاهد في الأفلام أو رأى من قبل عند البحيرة. "في كل واحد منا جزء من الرب يلامسه في كل مكان" ولربما كان بهاء الدين ولد سيعتبر السيارة "أوبل أسكونا" أيضا مسرحًا للحب. "حيثما تتهامس النساء الشابات معأقرانهن من الرجال تجد رعشة الحب." أتمنى ألا يكون الفتى الذي كانيحتلمفي مدخل جمعية الطلاب الإنجيلية كان قد مدّ إصبعه إلى سوستة بنطاله، أو ربما أنفذه ـلا، لا تفعل، أرجوكـ عبر السوستة عندما ناداه شخص كان من الواضح أنه ليس جميلة الجميلات. لكني لا أستبعد أن يكون هذا قد حدث. وجد أمامه الرجل البدين ذا اللحية، الذي يماثل أباه في العمر، ممسكًا مرة أخرى ورقًا موحيًا بالأهمية، ما تخلف من المظاهرةقبل الماضية. "آسف" نهض الفتى بسرعة، وأغلق لا محالة سوستة البنطال إن كانت لم تزل مفتوحة. "ليست هناك مشكلة" هدّأه مدعي الأهمية بهذه العبارة قاصدًا حصار وزارة الدفاع.

(٦٦)

أعود مرة أخرى لموضوع الموت الصغير، الوصف الذي يعبّر تعبيرًا قويًا وبحق عن حالة الشبق. ففي تنهيدات النشوة الجنسية ـهكذا يمكن بل وينبغي أن يُفهَم ابن عربي- في التنهيدات، التي هي الآهات، ينفخ الرب في المحبين. إنها حالة حاضرة فيزيائيًا في الإنسان، تقارن بطقوس الأفخارستيا في المسيحية. وهنا ينتهي التطابق الذي عقده الإنجيل قبل الصوفيين بين الحب الشبابي والحب الديني، في حين أن الأديان تستعين في شرح الاستسلام للرب بمثال اتحاد الجسد، أما أنا فأستند إلى الخبرة الدينية لفهم حب دنيوي خالص. هم يُهِمُّهم الخالق، أما أنا فيهمني المخلوق. ومع أني أقدر الفتى الذي أحب لأول مرة، فقد زادت انطباعاته الحسية آماله أكثر من إغداقها عليه بالخلاص. إذ لم يستطع ولو لدقائق أن يعطّل عقله الذي حاول أن يتدارك ما تحرر من الكلام ويتساءل في أثناء الإنزال عمّ سيفعل بعد ذلك. أما مقولة بهاء الدين ولد بأن على الإنسان أن يتعلم كثيرًا "حتى يعلم أنه لا يعلم شيئًا" فيمكن الاستعانة بها في شرح الاتحاد الجسدي، فتجربته الأولى كانت

أكثر إثارة وعنفوانًا منها في السنوات المتأخرة، بل وبها المذاق كاملاً من ناحية إن حسب ذلك بالإحصائيات أو حتى حالات النبوءة. والحالة الجنسية كالحالة الدينية يفيد فيها التدريب والسيطرة على الجسد وتكرار الممارسة، بل قد يرى المتصوفون تلك الأمور ضرورة، ويضيفون إليها دوام ذكر الله والشعائر ودراسة الكتب في مختلف العلوم، ومعرفة العالم والنضج الشخصي، حتى يضيع المحب في الحدث مثلما يضيع الرسام الصيني في لوحته. لا يمكن للإنسان أن يعيش النشوة على أنها مجرد حالة رائعة، بل عليه أن يعيشها كنسف مقصود ومتعمد للقدرة على الحكم. فالحبيب يسلم نفسه للمحبوب، يخضع لإرادته دون إكثار التفكير في تصرفاته التي قد تُسرد سردًا، ويبدي أعلى رد فعل على جميع الإشارات، بل ومستجيبًا لها بحساسية غير معهودة. إن الإسلام هو "الخضوع والإذعان"، وتعني كلمة "مُسلِم" من يسلِم وجهه لله. وقد ورد في الآية رقم ٥٤ من سورة المائدة عبارة "يحبونهم ويحبونه"، آية من أكثر العبارات اقتباسًا في كتب الفتى المفضلة. ومقارنة بالعازف المبدع الذي يغرق في البنية الموسيقية، ويستسلم لأشكال قواعدها حتى يعتقد أنه تحول إلى مجرد قناة، وأن الموسيقى تعزف نفسها، فإن المحب في أقصى درجات النشوة يظل مجرد حالة: فرغم أنه يتحكم في العملية كل عشر ثانية إلا أنه لا يشعر بشيء آخر لا عن يمينه ولا عن يساره، فيتحد مع الموقف وينسى أنه أضحى لا يفرّق بين "الأنا" و"الأنت"، كما قال منصور الحلاج قبل أن يُصلب عام ٩٣٤ "أنا من أُحب، ومن أُحب هو أنا"، وفي موضع آخر: "ليس هناك في الدنيا أي أنا أخرى سوى أنا".

الجنة على الأرض أينما يتوق الآخر أو الحبيب أو الحبيبة إلى أن يُراد، لا أن يريد، ولكن من الذي عليه أن يريد؟ هنا تحديدًا النقطة التي تتحدث فيها الصوفية عن الرب، ويتحدث فيها الأدب الحديث عن حلول الشخصية، "سلامًا سلامًا"، يسميه فرويد الشعور المحيطي، أو ذلك الموت الذي ربما يبدو متناهي الصغر بسبب المطلب النبوءاتي، لكنه حقيقي. مُت قبل أن تموت. ومع كامل تقديري، فقد كان الفتى أبعد ما يكون عن المحو الذي يمكن أن يحظى به كل إنسان وليس القديسون وحدهم إن أسقطنا ذلك على الحالة الجسدية ولو في إطار محدد. على أي حال، ضمن لأول مرة -وربما أدرك في عشر الثانية بين خاطرين- أن الإنسان يمكن بالفعل أن يكون شيئًا آخر غير "أنا" المتواصلة فقط. كم مرة ستسمح له جميلة الجميلات بدخول منزلها؟ مرتين أخريين أو ثلاثا على الأكثر، بعدئذ شعر الفتى أنه صار كالحيوان المزعج الذي يتركه أصحابه خارج المنزل، أو الكلب الذي يلقمه الناس الحجارة حتى يغادر الحارة. حتى إن كان هذا إحساسه وحده، وأنها لم تكن منطقية التفكير مثلما اتهمها الفتى -يكفي جنونها وإقبالها عليه رغم أن عمره لا يسمح بالوقوف في ركن المدخنين- فلا يمكن أيضًا أن تكون قد فقدت صوابها، إذ رافقته بعد اجتماع معارضي إنشاء الطريق السريع لشرب البيرة، لكنها أوصلته تلك المرة إلى بيته لينام. كانت رغم القلق تفكر في المدرسة غدًا، وفي الثانوية العامة، بل وفي أبويه اللذين لم يكونا في قائمة أولوياته بالمرة. أعترف ولو على مضض، أنها كانت حبه الكبير، لكنه لم يكن هو حُبها، أم أنها أحبته في وضح النهار أيضاً؟

(٦٧)

استنتاجه الوهمي الذي اتهمها به فيما بعد –مُقسماً قسم الغاضب– كي يقوى على النهوض في وحدته صباحًا كان بلا جدوى طبعًا، لأن اتهاماته لم تقلل اشتياقه ـ فانعدام إحساسها نفسه هو ما كان الفتى يمتدحه بوصفه نضجًا ورويّة ما دامت تنعم عليه بودها. لو كان الأمر بيده لما رافقها إلى مسكنها المحتل فحسب، بل لصار بين عشية وضحاها أحد ساكني هذا المنزل، ولا يحمله على الذهاب إلى المدرسة إلا أن يقضي أوقات الفسحة برفقتها. وراح يفكر في طلبها للزواج بينما عكف الرفاق في اجتماع جمعية الطلاب الإنجيلية على بحث سير المظاهرات التي وعد أنه لن يُفسدها ثانية ما دام يعيش ـ ما داما يعيشان في هذه المدينة الصغيرة. ولأنه اختار الزواج فقد تابع التفكير في كيفية ومكان إتمام هذا الزواج في سرية وسرعة، في لاس فيجاس أم في قارة أخرى هي موطن قراءاتها المفضلة. ألا يمكنهما أن يرسلا خطابًا إلى "إرنستو كاردينال" في نيكاراجوا يطلبان منه أن يبارك حبهما الذي تقمعه قوى رجعية؟ أليست الثورة في أمريكا اللاتينية إحدى مهمات الحياة التي قد تبهر جميلة

الجميلات؟ طرح الفتى هذا الاقتراح في السيارة على هامش الحديث حتى يتراجع عنه باعتباره مجرد مزحة إن سخرت منه. لكنها لم تسخر منه، لم تبدِ أي ردة فعل، كل ما كان منها أن وضعت يدها اليمنى على يده اليسرى. كان هذا ما أحبه فيها وما ألهب حبه الكبير: إنها لم تلجم اندفاعه قط، وكانت تمتلك وضوح الرؤية. ولهذا تحديدًا كان يستسلم لفيض مشاعره وأفكاره، لأنها تحافظ على توازنه. لقد سماها في كتابه "الواقعية"، وأسمى نفسه "الحالم"، نسب إليها النظام وإلى نفسه الفوضى، عرف في حبها اتحاد أشهر الأزواج التي خُلقت لبعضها، وتجسد فيها مبدأ يونج ويانج الذي سمع عنه أول مرة قبل أقل من أربع وعشرين ساعة في مطبخ منزلها. وعندما غيرت ناقل الحركة قبل التقاطع وضع يده مع يدها على قبضة الناقل.

(٦٨)

إن كنت سأخصص ما يقرب من ثلث الحكاية للحديث عن القنوط الذي صارت ذاكرتي تقتصر عليه، فلا تتبقى سوى صفحات ثلاث لأنهي فيها فصل البقاء في الفناء. لقد بدأت لتوي بالسعادة التي لم تنحصر في زمان أو مكان، بل غيرت الدنيا كلها وللأبد. الفصل والمدرسة مثلاً، لا أقول إن العالم تغير تغيرًا شاملا جعل من الفتى تلميذًا مجتهدًا في المدرسة، وإنما صار بين عشية وضحاها ينظر نظرة اعتدال لأقسى المدرسين، أولئك الذين كُتب عليهم النظر إلى التلاميذ الذينيقتلهم الملل حتي يصلوا لسن التقاعد، رغم أنهم قد يودون أن يعيشوا أنفسهم حياة صادقة، إضافة إلى تحسّن محمود حتى أمام الناظر الذي لم يمكنه فعل شيء سوى أن يعاقب تلميذًا هاربًا من الحصة، وود لو يعانق زميله في المقعد في الفصل لأنه سأله مرة أخرى إن كان كل شيء على ما يرام. أعجَبُ كيف انعكست هذه الرقة التي أكنها للجميلة على فناء المدرسة، الذي لم يعد يراه رقعة من الأسفلت بين خلاطات المونة، وإنما باقة من البشر تضج بالأصوات والحركة والألوان وقت

الفسحات. انتبه أولاً للأشجار، خضارها الربيعي يحكي لسان حاله، وجد الغابات وراء ركن المدخنين بقعة ساحرة، ووقف على ضفة النهر كمن وقف أمام نبع الحياة. لن أنغص على القارئ بسرد المقارنات التي عقدها الفتى، بين القطرة والمحيط، وبين شعاع النور ومصدره، فلا تحضر ذاكرتي منها سوى صور مموهة، وسأجد هذه المشاهد غالبًا في كتبه المفضلة، وفي الأفلام التي تعرض على شاشة التلفاز (وفي الروايات والأفلام واسعة الرواج إلى آخره). رغم ذلك فقد كان ذلك ـحسب معاييره هوـ اتّحادًا أول وعظيمًا مع الطبيعة حظي به الفتى في أثناء انتظاره جميلة الجميلات بين مخزن شركة توريد وساحة انتظار سيارات الزبائن التابعة لمتجر مواد البناء: الطيور التي أذهب غناؤها ضجيج الشوارع، الزهور الخضراء التي يفيض سرورها ويزيد على أي جبل تغطيه المروج، والشمس التي داعب لمعانها صفحة الماء، وغمر دفؤها باطنه، وصدره وجوفه حتى أصابع قدميه. "اعشق من تحب، فستكون قد أحببت الرب" هكذا قال فخر الدين العراقي. "ولّ وجهك حيثما شئت، فسيتوجه لك الرب حتى إن لم تعلم. فليس من الخطأ، بل من المستحيل أن تحب أحدًا حبًا يفوق حبه."

(٦٩)

ردّ العالِم الكبير عبد الكريم الجيلي في بداية القرن الخامس عشر على التعاليم الصوفية والتوراتية القائلة إن الرب يمكن أن يعظّم في الأشياء كلها، بقوله إن تعظيم الرب جائز أيضًا في تعظيم آلهة أخرى، لأن الرب نفسه وصفها بكلمة آلهة. وفسر الجيلي الآية ١٤ من سورة طه "إنني أنا الله لا إله إلا أنا" كما يلي: "ليست هناك ربوبية معبودة إلا أنا، فأنا الذي أتجلى في كل صور الآلهة، وفي الأوساط والطبائع وكل ما يعبده أتباع الأديان والمعتقدات الأخرى. فجميع الآلهة أنا."

(٧٠)

لم تخجل جميلة الجميلات من الظهور مع الفتى خارج فناء المدرسة، ولا من معانقته وتقبيله، يا لها من قبلات، قبلات طويلة زاخرة بالشغف والرغبة، ولا من أن تتمشى معه في السوبرماركت، يدها في يده، يتبضعان ما يحتاجانه لإعداد العشاء. تحضرني الأحداث كما لو كانت بالأمس، ما زلت أتذكر عبوات الطماطم المقشرة الثلاث التي وضعتها في عربة التسوق، والبصل والثوم وشِبَاك الفليفلات بالألوان الثلاثة، ما زلت أرى عبوات البردقوش على الرف الذي وصفته بنبرة طبّاخة خبيرة أنه لا غنى عنه، ولا أنسى ماركات جبن "البارميزان" في الكيس، ولا أنها اشترت عبوتين من اللحم المفروم اختارتهما من اللحم البقري الخالص خصيصًا لأجلي على الرغم من أن اللحم المخلوط أرخص. أتذكر كذلك أنها لم تحتج مكرونة، حيث كان لديها ما يكفي في المنزل المحتل، لكنها أخذت أربع زجاجات من النبيذ الأبيض الإيطالي "فرانسكاتي" سعرها... نسيت، سأحاول أن أتذكر سعر الزجاجة. هأنا أرى حدود ذاكرتي بعد ثلاثين عامًا انقضت. أعتقد أنها رغبت أيضًا في

إرباك ونكاية الرجعيين والمنغلقين عندما تحيط بذراعها ذراع الفتى. "ورد إلى خاطري أن أجمع قلوب الناس كلها حولي"، هكذا كتب بهاء الدين ولد في سياق لا علاقة له بالسوبرماركت، لكن أجد العبارة مدهشة لدرجة أني أقتنص الفرصة لأقتبسها رغم أني صرت أشك أني أتخذ حب الفتى شيئًا فشيئًا ذريعة لأخوض في قراءاته المفضلة. "فلقد ورد للتو إلى مخيلتي: جميعهم مجتمعون. واصلتُ التفكير: سوف أشعر بينهم بالضيق، أريد أن أتبول وأتبرز معهم، لكني أخجل، أريد أيضًا أن أضاجع النساء وخلافه. وجاءت الإجابة: افعل كل ما تشاء، أخرج الريح وتبرز وخلافه، فمن بقي معك فهو من سيبقى ولو كنت بذيئًا. ومن أراد الهرب فليفعل. فإن لم تكن بك بذاءة فسيؤلهونك، والله لا شريك له." ربما لم يقِس زبائن متجر مواد البناء فارق السن، لكن ظهور جميلة الجميلات علانية مع الفتى بالقرب من المدرسة أو وقوفها معه على ضفة النهر في الفسح سيجعل من الأمر مسألة وقت، بضعة أيام، إلى أن يكتشف التلاميذ أمر الحبيبين ويبلغ ناظر المدرسة أولياء أمورهما الخبر. ثم القبلات، ولأذكّر مرة أخرى بتبادلهما الأنفاس مع الأخذ في الاعتبار الطابع البروتستانتي الصارم الذي اتسمت به مدينتهما، القبلات التي تبادلاها في أثناء انتظارهما في طابور الخزينة، وعلى الرصيف، وفي السيارة، كانا ينتهزان احمرار الإشارة فتدوم القبلة إلى ما بعد اخضرارها، ويدها التي وضعتها على ردفه ويده التي أمسك بها نهديها بلا خجل، والقهقهات والضحكات التي أطلقاها بلا كلام كرد فعل على نظرات المارّة، أو بسطهما الإصبع الوسطى إجابة على بوق سيارة

خلفهما. أجل، ستكون جميلة الجميلات قد أدركت عنف حبهما وخطورته، وأدرك أنا بعد ثلاثين عامًا مدى اشتياقي. ليس هنا سوى وصفة صلصة اللحم المفروم هي ما أزعم إلى اليوم أنها تخصني أنا.

(٧١)

لقد تحدثت فيما مضى عن معايشة الطبيعة. وإذ أقتبس مع كتاب "بوابات الإدراك" للكاتب البريطاني ألدوس هاكسلي من كتاب آخر قُرِئ كثيرًا في العصر الذي كتب فيه ـكان المناخ الثقافي خلف محطة القطار أعلى منه في فناء المدرسة حيث الحديث عن أمراء الأساطير، بل كان أعلى من "الحلم والفوضى"ـ فقد تجلى إبداع الخالق بين مخزن شركة الشحن ومحل انتظار سيارات زبائن متجر مواد البناء في "فيضان من الجمال يزداد جمالاً، معناه العميق يزداد عمقًا". لم يكن جمال الطبيعة اكتشافه الوحيد، فلقد اتخذ الفتى العلاقات الإنسانية للمرة الأولى قدوة بمجرد أن دخل أبواب البيت المحتل. كان الجميع يتحدثون بلطف وود مع بعضهم البعض، يُتبعون كل عبارة باستفهام تقريري على غرار "حقا؟" و"أليس كذلك؟" كأن الرد قمع أو غصبًا، وكثيرًا ما أمسك المتكلم من يخاطبه من تحت ذراعه كي يؤكد له تعاطفه الحتمي، وتكونت لدي ثروة لغوية هائلة من ألفاظ تدليل الأسماء والألقاب والأشياء. أما صيغ الأمر فلم يكن لها وجود مطلقًا، فإذا أراد أحد شيئًا من الآخر بدأ طلبه بكلمة

"أرى أنه..." ليتبعها مباشرة بـ"ينبغي للمرء" حتى لا يشعر أحد بالضغط أو الإلحاح (وبنفس اللطف أيضًا التحذير من وقت لآخر من إغفال كلمة "المرء"). قد يسخر القارئ من الظروف التي كاد الفتى يرى فيها تجسد الحالة المثالية، أو قد يرى أني أصورها تصويرًا كاريكاتيريًا بشعًا، لكني عندما أتخيل حواريي يسوع، أو طائفة السامريين، أو أولئك الدراويش الذين لا يمسّون صحن الأرز الذي يتسلل إليه النمل حتى يترك النمل الصحن كي لا يُشعروا النمل بالضغط أو الإلحاح، فلا بد أن القديسين كانوا أكثر رحابة ولطفًا في الحديث، وربما كان الواحد منهم لا يشكر الآخر على سلام اليد بمعانقته فحسب، بل بالسجود له. ثمة شيء آخر لمس الفتى دون غيره: لم يقلل أحد من شأنه لحداثة سنه، كما لم يعطه أحد مهام قد تشق عليه أو يجبره على فعل أشياء لا يزال صغيرًا عليها، لم يملأ له أحد كأس النبيذ مرة أخرى أو يرشده إلى مكان شراء الماريجوانا، رغم أن أحدًا لم يمنعه من المشاركة في تدخين سيجارة الماريجوانا في جلسة السمر عندما كان يضع السيجارة بين شفتيه كأنه سيتمها في نفس واحد كما بدا من تقعّر وجنتيه. لم يك هذا من قبيل اللامبالاة، بل نوعًا من الاهتمام أحسه نظرًا لسنه لكن على نحو مريح جدًا، وكالأشقاء الكبار لم يغب عن نظر سكان البيت أن هناك حدودًا ينبغي ألا يتخطاها، لكنهم لم يشعروه بذلك. فكانوا يتجاوزونه في الدور إذا شرعوا في تعاطي "إل إس دي"، الذي سمع الفتى عنه لأول مرة العجب العجاب، حتى أنه لاحظ لاحقًا أنه الوحيد الذي لا يعرضون

عليه. لكن لا بأس، فالحِلم الذي أسر الفتى في سكان البيت قد يراه غيره قصفًا مدويًا.

(٧٢)

اكتشف الفتى "بوابات الإدراك" على ركام من الكتب ذات الأسطر والكلمات الضيقة المتقاربة عندما كان يتبول قاعدًا امتثالا للأمر المكتوب على اللافتة. فأخذ معه الكتيب الصغير كلما خلا لقضاء حاجته، فيقرأ تارة فقرة، وتارة ثلاث صفحات حتى يتعرف أكثر وأكثر على الهلاوس التي يحكي عنها ساكنو البيت العجب العجاب. فأخذت أوقات قضاء حاجته تطول شيئًا فشيئًا، ولئلا تقلق جميلة الجميلات ظنًّا منها أنه يعاني من مشاكل في الهضم أخذ كتاب "هاكسلي" إلى المطبخ وسألها عن صاحبه. أجابته بلهجة شبه شيوعية "هو لك ما دمت تقرؤه". وكما ذكرت فقد كان للفتى قراءاته المفضلة. ما زلت أشعر حتى اليوم بالحرج من الإيماءات التي حصدها في الجلسة التالية في المطبخ عندما شبَّه سكرة المخدرات بلهفة الواعظ إلى "التناول"، رغم أنه لم يعش تلك السكرة قط، ولا أستطيع أن أتذكر كيف وجد الفتى علاقة للمخدرات مع النشوة الدينية. ولم تعد هناك حاجة إلى لافتة إرشادية كي يراقب جميلة البيت بطرف عينه ليرى إن كانت تنظر إليه مؤيدة أو حتى بعين

التقدير. إني أتحدث بالتفصيل عن "بوابات الإدراك" لأني اشتريت الكتيب ورحت أتدارسه مرة أخرى بعد ثلاثين عامًا. أخذني الفضول لمعرفة الوصف الذي استند إليه الفتى، كان "ألدوس هاكسلي" هو من عقد المقارنة بين تجربته و"الرؤية المغبطة". وبالخبرة إذًا فقد كان التأوه مقلدًا من الألف إلى الياء. ألم ينظر أي من سكان المنزل في الكتبْ المكومة بجانب الكنيف وهو يقضي حاجته؟ غالبًا لا، ولم يكن المناخ الثقافي في البيت أرقى منه في فناء المدرسة. على أية حال لم ينتبه أحد من الموجودين في المطبخ إلى أن الفتى كان يثرثر أمامهم بما تعلمّه في أثناء قضاء حاجته، ولا حتى جميلة الجميلات التي كانت مع جمالها الأذكى والأكثر قراءة بينهم. أو أنهم لم يُشعروه بأنه بلغ حدوده.

(٧٣)

إن كان للقنوط الذي دام طويلاً، سنوات وعقودًا، بل واستولى عليّ حتى اليوم، قهرة الفراق، وعذاب الاشتياق، وسلاسل الجدب، إن كان له مكان في حكايتي فعلي أن أغفل الحياة اليومية للعاشقين حتى أنهي أخيرًا فصل البقاء في الفناء (حتى كلمة "الحياة اليومية" توحي بعلاقة استمرت سنوات وعقودًا، بيد أن هذه هنا تزيد بالكاد على أسبوع). أريد أن أتطرق اليوم مباشرة ودون تردد إلى المكان والزمان اللذين بدا فيهما الحب للفتى في أوجه، إن المظاهرات ضد إنشاء الطريق السريع ـتلك التي سرعان ما ترد إلى خاطري ـ لم تكن عظيمة أو مثيرة كالليالي التي قضاها مع جميلة الجميلات، مجرد مسيرة مضطربة في شارع، لا أريد أن أصفه بالشارع الجانبي، فحتى بالنسبة لمدينتهم الصغيرة اعتُبِر شارعًا تكاد تمر فيه السيارات وليس به متجر واحد. كان معارضو إنشاء الطريق السريع الذين لم تتطابق أفكارهم مع حركة السلام قليلي العدد، لكنهم اعتُبِروا رغم ذلك النواة الصلبة بالحركة، حتى إن السلطات أغلقت حارة واحدة فقط من أجلهم. كما ما زلت أتذكر كيف وصَفهم قائدو السيارات في الحارة الأخرى في الشارع

بالمجانين، لكن الحرب ضد جنون التقدم قد مُحيت تمامًا ونُسيت. ما على القارئ سوى أن يستدعي صفحة المدينة التي ولدتُ فيها على الإنترنت ليرى على الفور الطريق السريع الذي يمر خلف محطة القطارات. هذا تحديدًا ما أريد أن أصل إليه: لم تكن فترة بعد الظهر بالنسبة للفتى مثيرة أو انقلابية أو كارثية على الإطلاق، هو الذي حاصرّ من قبل وزارة الدفاع. وأود أن أؤكد على عدم وضوح المظاهر الخارجية، إذ تكمن فيها حقيقة عن البقاء في الفناء أُبرِزت في كثير من المعالجات. الحب يقارن مقارنة سلبية بالفوضى، إن كانت هناك مقارنة أصلاً. والسمة الخاصة في تلك الذكرى تكمن في الاعتيادية، تمامًا، في الوهلة الأولى من الفترة التي لم تلطخها عادة بعد. لم يفكر روزبهان البقلي في نهاية القرن الثاني عشر في شيراز في فتى وفتاة سيتظاهران بعد ثمانمائة عام في مدينة صغيرة في غرب ألمانيا احتجاجًا على إنشاء طريق سريع، لكن مصطلحه "البقاء في الفناء" الذي يصف به الحالة التي "تبقى دائمًا دون بداية" صار ينطبق على الحب الذي بدا لي الحب الأكبر، حيث يشعر الحبيبان للمرة الأولى أن كليهما يعرف الآخر بالفعل أبدًا، وأن فراقهما مستحيل. ويذكر علي الهجويري الذي توفي في لاهور قبل البقلي بمائتي عام بأن "السكرة ساحة لعب الأطفال، والوعي ساحة موت الرجال."

(٧٤)

الوهلة الأولى من الفترة التي لم تلطخها عادة بعد، أميزها بالابتسامة الأولى التي أهدته جميلة الجميلات إياها دونما سبب، كي أعرض موقفًا واحدًا من المظاهرة ضد إنشاء الطريق السريع. تقدم الحبيبان جنبًا إلى جنب وسط الجمع الصامت من معارضي إنشاء الطريق السريع، الذين بدوا ـرغم نحافة عددهمـ مصرين أيما إصرار على إظهار احتجاجهم الشديد لسائقي السيارات القادمين في الاتجاه المعاكس من الذين أشاروا إليهم واصفينهم بالمجانين. وتولد لدى الفتى على الأقل إحساس بأن هوس التقدم معارض أقوى من التسلح النووي. لكن هشاشة دعم المقاومة انفضحت في ذلك اليوم، وبات جليًّا أنهم لن يستطيعوا منع إنشاء الطريق السريع. ولم يكن الفتى بحاجة إلى خبرة سياسية كي يتكهن بأن البيوت الواقعة وراء محطة القطار ستُزال عما قريب، بل قد تهدم في الليلة نفسها. لكنهما لن يستسلما، هو وجميلة الجميلات، سيسيران جنبًا إلى جنب مثلما يفعلان اليوم، من أجل الطبيعة والسلام، بل ومن أجل الثورة في أمريكا اللاتينية. راح الفتى ذو

الوجه الغاضب يتخيل مستقبلهما معًا، وود لو يبدأ اليوم الجديد بعصيان مدني يتحول إلى إضراب عن الطعام وأعمال تخريب في منطقة البناء، ثم الطرد من المدرسة، وتحفظ الشرطة عليه، وإن كان لا بد فالاستشهاد في معسكر الاعتقال النازي الذي يديره النظام الفاشي، ورأى بطرف عينه جميلة معارضي إنشاء الطريق السريع تبتسم له حتى بانت الثغرة البهية بين سنيها وراء الشفتين، ابتسمت دون أن يقلدها ساخرًا من شفتيها اللتين تضمهما قليلاً إذا تحدثت، دون أن يلقي عليها النكات التي دوّنها من أجلها، دون أن يدغدغها برقة في جنبها أو بأصابع قدميه في بطن رجلها في السرير، دون سبب أو ربما لسبب واحد: أن تكون حيثما هي الآن. جنبًا إلى جنب معه من أجل عالم أفضل. ويلٌ للقارئ الذي يعتبر حبيبين قد جُنّا.

(٧٥)

سأل أحدهم أبا يزيد البسطامي، الشيخ العارف الشهير الذي عاش في القرن التاسع الميلادي: ماذا تقول في رجل شرب قدحًا من النبيذ سكر بها لأبد الآبدين، سكرة في الماضي وفي المستقبل. فأجاب "لا أعلم، لكني أعلم أن هناك رجلاً يشرب بحارًا من الأبد في يوم وليلة ولا يزال لسانه خارج على صدره من العطش."

(٧٦)

بما أن حكايتي بلغت ربعها الأخير فعلي أن أبدأ في موضوع القنوط الذي استولى طويلاً على المتصوفين، وإلا فلِمَ فاضت أشعارهم بأبيات عن الألم وقلّت فيها أبيات الإشباع، ولأستعِن بقصيدة "ليلى والمجنون" لنظامي الكنجوي كي أوضح العلاقة التي تنطبق على تجربة الفتى. فقد رصد نظامي في حبه الكبير فصلاً للمقدمة، وآخر للاتحاد، وخمسة وعشرين للفراق والاشتياق والأسى. ورغم أن الضحك لم يفارق جميلة الجميلات دونما سبب طيلة مظاهرة الاحتجاج على إنشاء الطريق السريع، إلا أن الفتى لم يفهم سبب عدم اتصالها به في عصر يوم من الأيام المقبلة، لم تعد تتحدث معه، ولم تُعد الاتصال به ولم تكن في البيت عندما يدق الجرس. كان الاثنان يقضيان الفسحتين بين أحضان بعضهما عند النهر، ولم يتواعدا لأن التواعد بدا مبالغة في الانضباط والنظام والقواعد، ويلتقيان كل يوم دون تخطيط على الظهيرة أو على المساء على حد أقصى، إما لتناول الآيس كريم أمام محطة القطار، وإما لكفاحهما ضد التسلح النووي. إن ابن عربي لا يعالج في "الفتوحات

المكية" سوى ألم المجنون، لم يتناول فيها التحقق قط، إلا في المشهد الذي عرضت ليلى فيه نفسها مرة على المجنون: إذ راح المجنون ذات يوم يصيح ويصرخ طالبًا ليلى، "ليلى، ليلى"، ووضع قالبًا من الثلج على صدره فانصهر سريعًا كأنما وضعه على موقد مستعر. ردّت ليلى: "هأنا التي تنشدها. أنا التي تشتهيها، أنا حبيبتك، شفاء روحك، أنا ليلى". استدار المجنون نحوها ونادى: "اغربي عن وجهي، فالحب الذي أكنه لك يأسرني أسرًا حتى إني ليس لدي وقت أهبك إياه". ويبرز ابن عربي التحقق الذي يظهر في إجابة المجنون: "وهذه أحلى وأبهى حالة يحسها الإنسان في الحب". أعتقد أن الفتى كان سيرى أن ابن عربي يهذي.

(٧٧)

قبل أن أواصل موضوع الافتراق لأتحدث عن الشوق والأسى سأعود مرة أخيرة لموضوع الاتحاد، إذ كانت هناك لحظة، أو حتى فكرة، دامت أكثر من عُشر ثانية، فرغم قلة الخبرة والممارسة وضعف التحكم بالجسد اقترب الفتى أيما اقتراب من "الانطفاء" الذي يمكن أن يحظى به أي إنسان وليس القديسون وحدهم، ذلك الانطفاء الذي له صلة بالجسد، بل إن شئت فقل المقتصر على الجسد. وفي الحقيقة فإن الفتى لم يقترب، بل ابتعد مرة أخرى ولم يعرف الاتحاد إلا فيما بعد. ولربما كانت إعادة تدبر الأمر سببًا مباشرًا من أسباب الحزن الذي تحدث عنه الطبيب والفيلسوف اليوناني جالينوس في القرن الثاني الميلادي. وينسب ابن عربي إلى عبارة جالينوس الشهيرة دائمة التوبيخ "كل حيوان يصبح حزينًا بعد الجماع" حقيقة متأصلة، حيث يصف الكلل الذي يتلو العملية الجنسية بستار يفصل الإنسان عن الواقع. على المحب بصفته المخلوق أن يسمو فوق الطبيعة حتى يدرك الخالق في محبوبته. وإن فهمتُ ابن عربي فهمًا صحيحًا فالحزن يستولي على المحب لأنه يدرك أن الاتحاد

بالمحبوبة وهم، والوهم هنا اعتبار الاتحاد وهمًا. إنها فكرة جذابة وغريبة في آن واحد: إننا نحلم حيثما نعتقد أننا أيقاظ. وإسقاطًا على نفسه فإن المحب يضجر من طبيعته المخلوقية والرباط الوثيق الذي يقيد روحه بوجوده. وهذه الطبيعة مرتبطة به ولن يستطيع أن يتحرر منها أبدًا. وبغض النظر عن أية كتب قرأها الفتى ـأعلم ذلك بعد ثلاثين عامًا من الاتحادين الأول والثاني وكل اتحاد أتذكر أحداثه بالتفصيلـ خمن الفتى أن عليه أن يواصل مداعبة جميلة الجميلات وتقبيلها ليحافظ على الرباط بينهما بعد أن عرف أخيرًا سر التحقق، الذي لم يُطبق السماء على الأرض كما رأى من قبل في الأفلام أو عند البحيرة، هذا التحقق الذي يبدو أنه حظي به وحده. تعارض ذلك لأكثر من عُشر ثانية مع شعوره، وقد يكون تصرفه من قبيل النفاق. وكان "الصدق" الذي تعلمه من جميلة الجميلات يقضي بأن ينصرف عنها، فلينظر إن أراد إلى الجدران النارية، ويا حبذا لو أغلق عينيه. لكن ما كان منه إلا أن أسرع يقبل مرة أخرى جميع أصابعها العشرة، ويسير بشفتيه على جسدها ذهابًا وإيابًا كعربة التنظيف التي تمسح الممر الواصل بين مبنيي المدرسة. المحب الصادق وحده هو من لا يترك نفسه ضحية للكلل، لأنه يعلم الأشياء على حقيقتها وليس أسيرًا للوهم.

(٧٨)

دون سابق إخطار وقف والدا جميلة الجميلات أمام باب البيت المحتل وطلبا الدخول، بغض النظر عن المُخطِر، سواء ناظر المدرسة أو شخص آخر سمح لنفسه بمراقبة الحبيبين. نصحته جميلة الجميلات أن يظل في الغرفة، وارتدت ملابسها بسرعة لتستقبل والديها في المطبخ حيث لا تزال الزهور المتفتحة في الجردل البلاستيكي. كل إنسان يرتكب في حياته حماقات، يسميها حماقات لكن الآخرين لا يغفلون عنها للأسف، إنها تصرفات تبدو من الخارج كارثية، ربما لا تغير مسار العالم، لكنها قد تحرف قدر الإنسان إلى اتجاه غير محمود، إنها أفعال بين الإنسان والإنسانية. فبدلاً من أن ينزل الفتى على رغبة جميلة الجميلات كما يجدر بإنسان محب، ارتدى هو الآخر ملابسه ليخرج على والديها ويظهر نباهته وألمعيته أمامهما وأمام جميع سكان البيت، تصرف يخالف كل منطق وعقل. أتخيل أنه ظن أن والديها سيهدآن برؤية صهرهما المستقبلي الذي تحدى درجة الحرارة الربيعية بثلاث كنزات قطنية كثيرة الألوان ارتداها على "أوفرول" باللونين الأزرق والأبيض، شعره الطويل الموج منتفش

بشكل مبالغ فيه حتى أصبح رأسه أشبه بكرة كبيرة، بها وجه تحيط به نظارة صغيرة من النيكل ووجنتان عليهما شعر خفيف يدل على أنه في الخامسة عشرة من العمر. لم يساعداه نعلاه الجديدان في محو الانطباع بهيئته الشنيعة، المبهدلة البذيئة، منظره الذي كان بمنزلة إساءة للرب في مدينتهم ذات الطابع التقوي. وعلى أية حال فلم يحتج الفتى لفطنة خاصة حتى يرى خيبة الأمل في أعين حميه وحماته المستقبليين، اللذين كانا يسكنان قرية مجاورة ما زال الشباب فيها بقصات شعر كلاسيكية وبناطيل فضفاضة، والفتيات بالضفائر والتنورات الواصلة إلى الركبة. وعندما أستحضر اليوم مظهرهما أتذكر أنهما كانا شخصين مرتبكين، نظراتهما متجهة إلى الأرض، يعطيان انطباعًا حزينًا يمس القلب، بديا ساذجين لكن على أية حال طيبين، يتوسلان ولا يطلبان أن يُستمع إليهما، إحساسهما بعدم الارتياح في مطبخ البيت المحتل فاق عدم ارتياح الفتى في ركن المدخنين. كان الأب ذا صدر نحيف بشكل مثير للشفقة، يرتدي بدلة رمادية دون رابطة عنق، كتفاه مّطلّتان للأمام قليلاً، أزرار القميص جميعها مقفولة حتى زر الياقة. أما الأم فكانت هي الأخرى رقيقة البنيان، ترتدي تنورة تصل إلى ركبتها، وبلوزة ذات لون بني فاتح بكرانيش، شعرها الرمادي ملفوف في شبكة خلف رأسها. مد الفتى يده ليصافح والدي جميلة الجميلات فتراجعا نصف خطوة للوراء، حينئذ لم ير سوى شخصين دخيلين، جاهلين وعدوين للحب لا يستحقان أي مساعدة ولو هُددا بالموت. ولربما كانا أيضًا من مؤيدي الأسلحة النووية ومع إنشاء الطريق السريع، أي أن لهما توجهات فاشية.

(٧٩)

قد يكون حريًا بي أن أوضح طيبة جميلة الجميلات بطرفة من أشهر طُرف أدب الصوفية بدلاً من أن أوضحها بلحظة تحررية: يحكى أن يسوع مرّ مع حواريه على جثة كلب تحللت حتى نصفها، وكان فم الكلب مفتوحًا. فقال أحد الحواريين معرضًا بوجهه مشمئزًا "يا لها من رائحة عفنة." فأجاب يسوع: "انظروا إلى أسنانه، ما أجمل بريقها."

(٨٠)

قد يظن القارئ أني تحدثت عن لقائي بوالدي جميلة الجميلات، أو عن الكلل الميتافيزيقي الذي تفسره المراجع الحديثة تفسيرًا هرمونيًا ويشخص بأنه اكتئاب ما بعد الشبق (في الحالات المستفحلة تعطى مثبطات السيروتونين)، قد يظن أني تحدثت عن هذين الفشلين لأبدأ أخيرًا في موضوع القنوط. هذا صحيح، فلقد أردت أن أسرد أسباب عزوفها على الحديث معه، أو إعادة الاتصال به، وإخباره بغيابها عن البيت عندما يدق جرس الباب. تمنيت أن أعلل أسباب انسحابها من حياته بظهوره الكارثي في المطبخ في ذلك بالليالي التي لم تزلزل الأرض فتسقط زجاجات النبيذ الفارغة. والحقيقة أني ليس لدي أدنى فكرة. لم تعط زيارة والدي جميلة الجميلات منحىً آخر لقدر الفتى، بل إن جميلة الجميلات وقفت إلى جانبه وأمسكت يده في تحدٍّ واضح، بينما انفجرت أمها في البكاء، واقترح أبوها وساطة القس قبل أن يهمهم في قلة حيلة بشيء عن مكتب رعاية القصر. لم يكن الفتى وحده إذًا هو ما أشعر الوالدين بخيبة الأمل، يبدو أنه شكل حياتها خلف محطة القطار الذي

فاق كل مخاوفهما، الأواني المتسخة المكومة على جانبي الحوض وعلى طاولة المطبخ، زجاجات النبيذ الفارغة المبعثرة في كل مكان، التي استخدم بعضها كحامل للشموع، أضف إلى ذلك أعقاب السجائر المتناثرة على الأرض، والرائحة، دخان الماريجوانا العالق في الهواء. ثم سكان البيت، بشعرهم الطويل واللحى، أو قصات الشعر القصير أو بعض النساء اللاتي اضطجعن على أريكة المطبخ أو بين بقايا السجائر. "نحن الذين طالما حذّرَنا منهم أهالينا": مقولة عُلّقت على آلاف الأبواب في غرب ألمانيا آنذاك. لقد لمس والداها الخاشعان في الفتى شيئًا مألوفًا بالنسبة لهما، فلقد كانت نغمة صوته المفعمة بالحياة ويداه اللتان ترتفعان بين الحين والآخر إلى السقف حالفًا بمثابة مقومات تؤهله لأن يخطب في كنيسة. وإن كان والداها متدينين فعلاً كما أفترض، وربما يعرفان بعض الأمور عن التصوف المسيحي بصفتهما تقويين، فلا يمكن أن تكون المشاهد التي اقتبسها الفتى من كتبه المفضلة غريبة عليهما كليةً، مشاهد تشبّه الحب بالطائر والعش، الريشة والجناح، الهواء والطيران، الصياد والفريسة، الصلاة والمصلي، الحاكم والرعية، السيف والغمد، الجرح والمرهم، الجوهر والصفة. على أية حال، لم يبد مطبخ البيت المحتل الذي سادته رائحة الماريجوانا مكانًا مناسبًا لعقد المقارنة بين الحب التصوفي والدنيوي في الأديان المختلفة، كما أنهما لم يفهما بالطبع نشيد الأنشاد فهمًا حرفيًا كما هو معتاد في التفسير التقوي لبعض المواطن في الإنجيل. لقد كان ظهور الفتى أقرب إلى إعلان للحرب منه إلى دعوة للحوار (بدأ الحديث كذلك مرة أخرى عن الأظهر المنحنية). وأستطيع أن أفهم بعد

ثلاثين عامًا أن خطبته قد تكون أفزعت جميلة الجميلات أو على الأقل أربكتها، لكنها لم تكن متوترة بالمثل ولم يغب والداه أيضًا عن بالها. لم تقل شيئًا، أدارت عينيها قليلاً، بل وعادت معه إلى الفراش بعد أن غادر والداها البيت المحتل بخُفّي حنين، وجعلا من الليلة التالية احتفالاً. الحق أني ما زلت أرى في الحبيبين الأزواج الشهيرة التي خُلقت لبعضها، وكذلك مبدأ البين واليانغ الذي قرأت عنه منذ ذلك الحين كتبًا كثيرة. لن أواصل الحديث عن الحلم والفوضى، أفضل أن أسميه الطير والعش، الريشة والجناح، الجوهر والصفة.

(٨١)

لم تكن الليالي الثلاث التي قضاها الفتى مع جميلة الجميلات هي الفشل الذي دوى أخيرًا، لكنها لم تكن أيضًا احتفالاً متواصلاً. مرت الليالي الثلاث على نحو غير الذي رآه في الأفلام أو ذات مرة عند البحيرة، كانت مليئة بأحاديث كثيرة خاضا فيها في أحضان بعضهما الدافئة تحت الغطاء الهندي. كان لدى كل منهما الكثير ليحكيه للآخر، ورغم ذلك فلا أتذكر حتى مواضيع أحاديثهما. كلاهما وجد سكنه في الآخر دون كلام، فاستمعا إلى موسيقى عمرها عشرة أو خمسة عشر عامًا، قدميه بين رجليها، ورأسها على ذراعه، يملّسان على بعضهما البعض بأطراف البنان بحنان، قرأ كل منهما للآخر من كتب الحب التي يحبها، وناما ابتداءً من الليلة الثانية وقتًا كافيًا كي تحضر له الشاي في السرير في وقت مناسب قبل الذهاب للمدرسة. وحتى الاتحاد، صحيح أنه لم يُرجف الزجاجات، رغم ذلك كان بالنسبة للفتى حدثًا مثيرًا بمعنى الكلمة تفوق نشوته أي مسكر. وحسبما أقدر على إعادة ترتيب الأحداث بعد ثلاثين عامًا ـ كان الفتى يفتقر مع الأسف إلى أي حاسة

تجعله يشعر بما تراه هي حدثًا مثيرًا- أتذكر أنها استمتعت هي أيضًا في تلك الليالي، وإلا لما كانت ستدعوه إلى فراشها مرة ثانية أو ثالثة. رباه! لكن لماذا لم تدعُه مرة رابعة؟ لا أحسبها تفوقه كثيرًا في الخبرة والممارسة والقدرة على التحكم في الجسد أو التمرين رغم أنها كانت في التاسعة عشرة من العمر، خاصة وأن الثورة الجنسية لم تستطع أن تحدث زلزالاً حقيقيًا في مدينتهم ولا حتى خلف محطة القطار. لقد اعتاد محتلو البيت التحرك عبر بوابات الإدراك مستعينين بالمخدرات لا بالحب والعشق الذي مارسوه أكثر بكثير مما كان يخشاه والدا جميلة الجميلات. لقد تعدى تقديمها حبيبها البالغ خمسة عشر عامًا لوالديها في مطبخ البيت حدود الحرية التي تشكل النواة الصلبة لحركة السلام وكذلك مبادرة المواطنين المنادية بمنع إنشاء الطريق السريع. وأخيرًا، فقد كان التسامح مع تغيير الملابس الداخلية أو التعري الكامل من أجل حمام الشمس أو التبول في وضع القرفصاء نابعًا من أن التعري لم يبعث هناك أية إشارات جنسية. كذلك فإن استنكار كل ما هو جنسي والحط من شأنه باعتباره قمعًا تجاوزه الإنسان لم يجعلا من تلك الحقبة عصرًا لطيفًا، ذلك العصر الذي قد لا نتذكره إلا بسبب موضاته الطريفة، والرجال الذين مارسوا الحياكة، والنساء ذوات الملابس غير المتناسقة.

(٨٢)

أود لسبب معين أن أوضح أمرًا، وهو أني بعد ثلاثين عامًا أخالف الفتى وألدوس هاكسلي في تشبيههما سكرة المخدرات بسر التناول، فالشعور بالانفصال المؤقت عن الذات ("الشعور المحيطي") الذي لن أقلده ثانية لأني صرت أفهم السكرة من منظوري الخاص، يختلف اختلافًا كاملاً عن شهود الرب حسبما يقر المتصوفون المسيحيون والمسلمون. ويرجع دافعي لذلك إلى أحد الكتب الصادرة عام ١٩٥٧ عثرت عليه لأنه يحلل "بوابات الإدراك" من ناحية الصلة بالعلوم الدينية. صحيح، ألاحظ أن الحكاية تتحول شيئًا فشيئًا إلى دراسة، لكني أرجو القارئ أن يسامحني لأن الرغبة في الفهم تزيد إلحاحها على نفسي، وفي النهاية فهي حكايتي أنا وليست حكاية القارئ. يشير باحث التصوف البريطاني الشهير ر. ش. زينر في كتابه "التصوف والمُقدّس وانتهاك الحرمات" إلى أن الشعور بالارتباط بالمحيط الخارجي، بل وبالتماهي فيه، ليس أمرًا خارجًا عن المألوف كما يفترض هاكسلي. حتى في حالة الهوس أو في التجربة الجمالية قد ينشأ انطباع بأن الشخصية الذاتية تضيع

فيما تنظر إليه أو تسمعه، مثلما يضيع الرسام الصيني في لوحته. أما ما يشهد به المتصوفون ـأرى بيت القصيد في عبارة العراقي: "ليس من يضيع في الرب هو الرب نفسه"ـ فهو انفصال الأنا في ذاتية أخرى شاملة. "الادعاء أو الإيحاء مثل هاكسلي بأن تجربته الخاصة تتطابق أو تتشابه مع الرؤية المغبطة المسيحية أو ما يعرف بـ"سات شيت أناندا" التي هي حالة "الوجود، الوعي، الغبطة" في الهندوسية، هذا يعني ادعاء اللاحقيقة الواضحة أو الإيحاء بها." وبعد أن سرد زينر بالتفصيل الفوارق اللغوية والروحانية والفكرية التاريخية بين التوصيفات الدينية والتجديفية لضياع الأنا ذكر في الصفحة ٢٠٦ أن الحب الجسدي يقدم الأمثولة المناسبة، بل المفيدة في الحالة التصوفية. فعلى عكس المحيط الخارجي العام مثل سكرة المخدرات تنفصل الذات في المتعة الجنسية في مقابل معين يدخل فيه المحب ويحتويه في آن واحد. "قد يبدو إبراز التشابه بين الاتحاد الجنسي واتحاد المتصوف بالرب اليوم من قبيل التجديف. لكن التجديف لا يكمن في المقارنة، بل في التحقير من شأن العمل الوحيد الذي يساوي الرب بالإنسان، سواء بشدّة اتحاده بالحبيب أو بكون هذا الاتحاد يجعله شريكًا في خلق الرب. إن الأديان الكبرى جميعها تعطي الاتحاد الجنسي قداسة، لهذا فهي تلعن الخيانة الزوجية والمغالاة في الجنس، فهذه الأمور ليست محرمة إذًا لأن المنطق يستهجنها، بل لأنها تنزع القدسية عن مقدَّس، فهي إساءة استخدام أكثر حالة يشابه فيها الإنسان الرب." ورغم أن الثورة الجنسية لم تزلزل مدينتهم ولا حتى خلف محطة القطار، لم تعتبر المغالاة أمرًا مستنكرًا في البيت المحتل، ولم

تُلعن الخيانة الزوجية خاصة لأن الزواج نفسه اعتبر مؤسسة بالية. ومهما كان حب الفتى كبيرًا فلا بد أن ر.ش. زينر كان سينكر صلة الفتى بالعلوم الدينية لأسباب أخرى.

(٨٣)

إن لم يكن الجنس مبالغًا فيه كما تخوف والدا جميلة الجميلات فلا مجال بطبيعة الحال للحديث عن الخيانة في حب فتى لم يبلغ حتى السن التي تؤهله للوقوف في ركن المدخنين. ولكن عندما يتساءل الواحد في معنى التحريم دون سر مقدس أو عقد فسيجد مغزاه في الألم الذي يلحق بمن يتعرض للخيانة. وبهذا المفهوم، بمفهوم الخيانة وانعدام الثقة، قلق الفتى دائمًا من أن تكون جميلة الجميلات قد أحبت أحدًا غيره. لم يكن الحب حرًا إلا في النظرية الثورية: على أية حال، فوقوع الشباب في الحب الذي يشبه "استغراق" المتصوف ويقترب منه ويتشابه معه في أكثر من الأعراض يَعتبر القبلة الأولى وعدًا، بل عقدًا، سرًا مقدسًا يعاقب انتهاكه بالإلقاء في الجحيم. لكن شبهة العدالة الإلهية كلها تظهر في أن الذي يكتوي بالنار هو من تلحق به الخيانة وليس الخائن. أزيد هنا من الشعر بيتًا: إن المحب وحده هو من يعاني معاناة أيوب، الذي لم يكمن عذابه في العوز أو الوحدة أو ألم الجسد. لقد كان عذاب أيوب في أن حبيبه هو من ألحق به البلاء. فإن لم يكن أيوب مؤمنًا لما علت شكواه.

وأحب أن أتخيل بعد تلك السنين أن غيرة الفتى عذبته لمّا كان لديه سبب جعله يخشى أن يقضي أحد غيره الليل في فراش جميلة الجميلات. وبدافع ما ذكره زينر عن الخيانة الزوجية، وعندما أمعن التفكير للحظة أخرى فعلي أن أعترف أن غيرته لم تحتج سببًا: فلقد بلغت غيرته حد الهزل قبل الافتراق، وقبل الاشتياق، وقبل الأسى. وسواء في ركن المدخنين أو في جلسة السمر في المطبخ راح يبحث في نظرات وحركات جميلة الجميلات وباقي الطلاب وسكان البيت المحتل عن إشارة قد تكشف له خيانتها. ولما لم يجد شيئًا راح يخشى الخيانة الخسيسة. ناهيك بالسيناريوهات التي راح يرسمها في خياله إذا تأخرت في طريقها من الفصل إلى النهر في الفسحة الكبيرة بضع دقائق عن المعتاد. ولم تكن "بوابات الإدراك" هي ما شغل الفتى دائمًا في دورة المياه، فلقد استولت عليه أكثر من مرة فكرة أن تكون جميلة الجميلات قد مالت لآخر بينما هو يقضي حاجته. وأدهى من ذلك: لم يأخذ الفتى كتاب هاكسلي معه إلى المطبخ لمجرد أنه يخشى أن تقلق جميلة الجميلات على جهازه الهضمي، لقد كان حقًا قلِقًا تجاه وفائها. هذا الشك غير طبيعي ولا منطقي بالطبع، أنا نفسي أدرك ذلك. لكن يبقى سؤال إن كان هناك شاعر واحد في خمسة آلاف عام قد وصف الحب بالمنطقي أو الطبيعي. ذكرت من قبل أن كلمة "المجنون" تعني في المصطلح الطبي مريض الفصام، لكن واحدًا من أشهر الزهاد في المراجع الإسلامية، أبا بكر الشبلي، الذي كان قاضيًا مبجلاً وموظفًا ذا مقام رفيع في الدولة قبل أن يقع في حب الله، أُودِع اثنتين وعشرين مرة في المصحة النفسية في القرن العاشر

الميلادي. وأرسل إليه الخليفة ذات مرة أفضل أطبائه إلى "مستشفى المجانين" فأعطى لأبي بكر عقارًا بالقوة. فقال أبو بكر للممرضين الذين أمسكوا به "لا تتعبوا أنفسكم. إن ما بي ليس مرضًا يعالج بالدواء."

(٨٤)

كانت غيرة الفتى بريئة أيما براءة مقارنة بغيرة أبي بكر الشبلي الذي لم يكن يحتمل أن يخاطب أحدهم حبيبه أو يذكر حتى اسمه. ما كان الفتى سيحمل سيفًا يجري به في فناء المدرسة كما جرى الشبلي بسيفه في أرجاء بغداد، وما كان أبدًا سينادي: "سأقطع رأس كل من نطق اسمها." بل إن الشبلي كان يغار من الأشرار الذين حقت عليهم لعنة الله. فعندما سمع ذات مرة رجلاً يتلو الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون "قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون" نادى الشبلي عندئذ "يا ليتني كنت واحدًا منهم." بل إن هناك من زايد على هذا الجنون الذي تبدو غيرة الفتى هينة مقارنة به. إذ أخذ الزاهد يرتعد تارة ويعرق تارة، ويلهث تارة ثم يصرخ، عندئذ سأله تلاميذه عن سبب اضطرابه المفاجئ، فأجاب: "لقد تملك مني الحقد على الشيطان حتى احترقت روحي في جحيم الغيرة. هأنا أجلس عطشان، والله يعطي آخر شيئًا منه بقوله "وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين" (سورة ص، آية ٧٨). لا أحتمل أن يلعن الله أحدًا آخر. ليتني أنا من لُعِن، حتى إن كانت لعنة، أليست تلك اللعنة منه؟" وأقصى

درجات الغيرة هي غيرة الإنسان من نفسه. وعندما سأل أحدهم الشبلي عن الحب الحقيقي أجاب: "الحب الحقيقي هو أن تغار أشد الغيرة من أن يُسمح لمثلك أن ينعم بالمحبوب." ذلك كله لا علاقة له بالفتى الذي ما كان الشبلي سيعتبر حبه كبيرًا أبدًا. أذكر ذلك لأوضح أن الغيرة لا تظهر مع القنوط، بل هي سمة من سمات النشوة. وأخيرًا، فلقد اشتهر الشبلي باقترابه من الله اقترابًا لم يشهده أي إنسان في عصره، وهذا ما جعل الناس يطلقون عليه اسم "الحبيب" أو "حبيب الله". هو نفسه راح يهمهم وهو على فراش الموت وقبل أن يلفظ نفسه الأخير: "لقد اتحدت مع حبيبي". ومن هذه الناحية فقد تكون غيرة الفتى زادت لهيب الفراق والاشتياق والأسى بعد أن أحست جميلة الجميلات بالإلحاح من جانبه، وزاد عليها وأفزعها حب الامتلاك الذي أراد أن يتحول إلى "الحب" مع الأسف، رغم أن الفتى لم يجرؤ قط على الإفصاح عن سوء ظنه. ولئلا يذكر أحد آخر اسم "الحبيب" أخذ الشبلي يكتب اسم "الله" على كل موضع خالٍ في أنحاء بغداد. وسمع فجأة صوتًا ينادي: "إلى متى ستظل مشغولا بالاسم؟ إن كنت رجلا يبحث فعليك أن تنشغل بالبحث عن المسمّى."

(٨٥)

ما زلت أرى أن أوضح تفسير لعزوف جميلة الجميلات عن الحديث، وعدم معاودة الاتصال به، وإخباره بأنها ليست في البيت كلما دق الجرس هو فزعها وشعورها بالضيق والارتباك من حبه العاتي. غير أنها ـحسبما أتذكر من رسالتهاـ اتهمته أنه لم يحبها حبًا صادقًا، أي حبًا كبيرًا كافيًا. قالت إنه دهس الوردة، وأثبت أنه لا يقدّر الغالي والثمين، وأشياء أخرى. أليست تلك الاتهامات أكثر من مقلدة؟ على الأقل فقد رأى أبو بكر الشبلي أن هناك من يفوقه في الغيرة: إنه الرب. وفي هذا السياق أطروفة رويت عن تلميذه الجنيد وأبي الحسين النوري الذي كان أحد أعلام التصوف في بغداد. إذ كان للنوري ولد جميل فيه إشراق للحياة، فأخذه معه مرة إلى الجنيد. فتنبأ الجنيد بموت الولد قريبًا وواسى النوري قائلاً: "عسى الله أن يجزيك عن مصابك الأليم خير الجزاء". وبعدها بثلاثة أيام مات ابن النوري. وعندما سئل الجنيد عن نبوءته أجاب: "رأيت أن النوري يحب الفتى، وعلمت أن الله غيور وسرعان ما سيقبض روحه." لقد كانت اتهامات جميلة الجميلات بريئة، مثلها مثل

غيرة الفتى إن قارنتُ رسالتها بعقوبة الأميرة التي هوى صوفي في حب جمالها. ولما علِمَت بحبه العاصف أرسلت إليه وقالت: "قد أكون جميلة، ولكن آهٍ إن رأيت أختي. انظر، إنها آتية هناك". ولأن الصوفي استدار أمرت بقطع رأسه. أما الفتى فعاد إلى المدرسة بعد فترة مرض قصيرة، واجتاز الامتحان بعد مرور شهرين، والثانوية العامة بعد أربع سنين، ثم التحق بالجامعة، ثم أسس أسرة، ثم قوّض زواجه، ثم واصل السير في دروب الحياة المعتادة.

(٨٦)

قبل أن أ لج أخيرًا إلى القنوط علي أن أذكر الوالدين، أقصد والدَي الفتى اللذين شنا ثورة عارمة طبعًا بعد أن بات خارج البيت مرة ثانية، بل مرة ثالثة. بيد أن الفتى لم يبح بالسر رغم كل التهديد والوعيد. هل سيحبسانه في المنزل؟ لا يهم. هل سيرميان أسطواناته في القمامة؟ لا بأس. أم سيرسلانه إلى مدرسة داخلية؟ ويلهما إن فعلا. ولما علما الأمر، وكانت جميلة الجميلات قد تركته مرة أخرى لدى الباب، كان حاله يرثى له: عاد باكيًا، مرتبكًا، كأنه غائب عن العالم، فلم يبق أمام أبويه سوى التعاطف والرحمة والقلق. حتى ذلك الحين لم يكن قد أُلقي بالحجارة التي سيُطرد بها من حارتها إلى الأبد. سأذكر أمرًا قد لا يتناسب مع قصتي لأنه يزيد الصراع بين الأجيال الذي يعود إلى زمن ليلى والمجنون وإلى جميع أنواع دراما الحب الكلاسيكية، إذ عليّ أعترف أن الوالدين لم يكونا شديدي الحزم، بل كان فيهما شيء من السذاجة وحسن النية. فلقد تركا الفتى الذي أقسم بعد الليلة الثانية على ألا ينام خارج المنزل مرة أخرى، ثم اختلق حجة مجنونة بعد الليلة الثالثة حتى لا يخاطر بانقطاع المصروف. وأكاد أتذكر ما أوهم به

والديه آنذاك، قال شيئًا عن حادثة دراجة وأخدود عميق أو حفرة في منطقة بناء سقط فيها، لم تكن الهواتف المحمولة قد ظهرت، وعندما عثر الناس عليه في الصباح أخذ دراجته وسار إلى المدرسة مباشرة حتى لا يفوت حصة الرياضيات، أو ربما كان واجب اللغة الألمانية، أو ربما طلب من المنقذ أن يوصله بالسيارة. على أية حال فلا يمكن للقارئ أن يتخيل حجم الخديعة التي نسجها خيال الفتى، وبمنظور عصرنا الحالي فمن الغريب، بل والمفجع، أن والديه صدّقاه بعد قليل من التردد، أو أوهماه أنهما صدقاه. أقصد، صحيح أن الفتى هو من تصرف بخبل، هو المحب، لكنه بعد الابتهاج الأول لم يعد يظهر ظهورًا تُرى فيه علامات الخبل فورًا، بل على العكس، فلأنه كان يتوقع أنه سيقضي ليلة رابعة لدى جميلة الجميلات استحضر جميع تعبيرات الوجه، وراح يستغل جاذبيته الطفولية، مناشدًا عناية الأبوين بذهن حاضر أن يتركاه يذهب إلى غرفته بسرعة ليرتاح. هذا أيضًا من الأمور التي تميز المحبين، القدرة على ترك جميع علامات الحب الظاهرية نزولاً على رغبة المحبوب. أتى أبو بكر الشبلي ذات مرة إلى النوري فوجده ثابتًا لا تتحرك في جسده شعرة. فسأله الشبلي: "ممن تعلمت هذه السيطرة البارعة؟" فأجاب النوري: "تعلمتها من قطة تتربص أمام جحر فئران، كانت أهدأ مني كثيرًا." لو كان أحد آخر غير الآباء أو الأمهات راقب المشهد في الردهة لاعتبر أن الوالدين هم من جُن وليس الفتى، إذ جعلهما الاضطراب وعمى الحب المفرط يسمحان للفتى بالخروج من المنزل مرة أخرى. من ناحية أخرى بدا الفتى بالفعل مكسورًا محطّمًا كمن قضى الليلة في أخدود عميق أو حفرة في منطقة بناء.

(٨٧)

رسالتها على مكتبي. المظروف لونه فعلاً أصفر، أصفر باهت، لكن قلم الفلوماستر عليه ليس بنيًا، ربما أسود. وقد رسَمت على المظروف مركبًا شراعيًا، وشمسًا تغرب، وسحبًا وبعض النوارس. وإن كانت رسالتها بمثابة حساب فلا أفهم لماذا أتعبت نفسها لتجعل من المظروف لوحة مثالية رسمتها بنفسها. ما زلت أتردد في إحضار الرسالة، أتردد منذ أسابيع، وتحديداً منذ ستة وثمانين يومًا، وذلك لأني أخشى أن أجده مبتذلاً كدفتر مذكرات الفتى. لكنها لن تكون مراهقة مثله في تقديس صوت الذات، فقد تجاوزت تلك السن، وكانت هي الأخرى فتاة بشوشًا لكن على نحو مختلف، يمكنه أن يتعلم منها، أعتقد هذا، اكتسبت في عمرها البالغ تسع عشرة سنة معرفة عميقة بالحياة وبّخت بها الفتى ببعد نظر حزين تمتلكه فتاة مخضرمة. وفي هذه اللحظة بالضبط، أرتبك لأسباب أخرى، أخاف على قلبي بعد أن وجدت خطابات أخرى كثيرة وأنا أبحث عن خاتمة جميلة الجميلات. خطابات أخرجتها من المظروف للمرة الأولى بعد عشرين أو ثلاثين عامًا. صداقات حقيقية

تختفي وتنتهي ببساطة دون أثر، حكايات حب دافئ ربما لم تعد تتذكر اسمي، أحداث من السعادة واليأس أنسبها إلى نفسي لأنها مثبتة حبرًا على الورق، حتى لو كان ورقًا رماديًا من منتجات إعادة التدوير استخدمه أبناء جيلي. أرتجف من فكرة أن كل هؤلاء الناس، حتى أصدقائي، ولا أعني الفتيات والنساء الشابات وحدهن، كل من هم تقريبًا في مثل عمري، أن هؤلاء كلهم يواصلون السير في دروب الحياة المعتادة هنا أو هناك، وأن شبكة من الناس ـمن المتماثلين في العمرـ تمتد عبر الأرض، وعلي أن أكون مربوطًا فيها لأن الصداقة أو الحب أمور لا تقبل التبديل أو التغيير، أرتعد من فكرة أن حكاياتهم لا تزال مستمرة وأنهم يعيشون في تبات ونبات. بعض البنات أو النساء الشابات اللاتي قرأت خطاباتهن كنّ بمثابة الوحي لي، هذا أمر تثبته العلوم الدينية. وها أنا أقرأ خطاباتهن الآن كشهادات على أديان اختفت. ومع أني ما زلت أرى أن حب الفتى كان كبيرًا، على غرار الأديان، فقد تم التقليل منه بادعاء أنه ليس الحب الوحيد، وبأني سوف أحب حبًا أعمق سيدوم فترة أطول بكثير، وسأحارب بضراوة، وسأخسر أكثر، وسأعيش متعة الجسد أكثر من الفتى. حتى أم ابني عرفتها في العصر الذي كان يتبادل فيه الأحبة كل أسبوع خطابات من عشر صفحات أو خمس عشرة صفحة، وكم يفاجئني أن أكتشف أن زوجتي وقعت ذات مرة في حبي. ترى كم حربًا –حرباً عقائدية إلى حدٍ ما– خضناها كي تتبخر هذه النزاعات من ذاكرتي بالكامل؟ كان من المستحيل أن أربط بين نبرتها التي سيطرت بها على مدار خمسة عشر عامًا وصوتها الذي أسمعه مرتين أو

ثلاثًا في الهاتف عندما نتفق على رعاية ابننا، صرنا نتحدث حتى عن تربيته بهدوء وروية. وحينما أنظر إلى مشهد الأوراق الرمادية المتناثرة أمامي على رقعة السجادة المصنوعة في بلاد كتبي المفضلة أشعر أني أنظر من أعلى، أنظر من السماء إلى حياتي، كل الناس فيها صغار، لكنهم مجتهدون كالنمل. إن أبناء جيلي ممن بلغوا الآن العقد الرابع أو الخامس من العمر هم آخر جيل في غرب ألمانيا أو في فترة غرب ألمانيا ممن كتبوا خطابات على مدار مرحلة الشباب ليتركوا وراءهم بذلك شيئا ماديًا يمكن أن يُعثَر عليه بعد عقود في الخزانات القديمة ويُفرش على السجاد. وخلافًا للأجيال التي سبقتنا فإن مرحلة الشباب وحدها هي ما تم تدوينه، كأن الكبار لا يعيشون شيئًا، لا صداقات ولا قصص حب ولا أحداث من السعادة واليأس تلهمهم لكتابة رسائل من عشر صفحات أو خمس عشرة صفحة. ربما هذه هي الحقيقة.

(٨٨)

قد يبدو حب الفتى سطحيًا لكل من يتأمل الحكاية من الخارج، وإن لم يدم هذا الحب طويلاً، ولم يُحارب من أجله حربًا حقيقية ـ فجميلة الجميلات لم تعد تسأل عنه، هكذا دون مقدمات، واقتصرت محاولاته لاستعادتها على عصر اليوم الوحيد الذي قضاه تحت نافذتها، والتفتيش عنها في الحانات حينما انتقلت للعيش في المدينة الكبيرة ـ رغم هذا كله فلا يعتبر ذلك مشكلة تُذكر مقارنة بأسرة سيهدمها، ورغم ضعف نشوته الجنسية ـ حتى لا أتحدث عن نشوتها ـ لكني ما زلت عند قراري: لم يحب الفتى بعد ذلك أبدًا حبًا أشد. لم أعد أتذكر اليوم الذي تناول فيه الاثنان الآيس كريم مثل كل الأيام في الميدان المقابل لمحطة القطار، الذي كان تتوسطه نافورة عادلت من براجماتية البنايات المحيطة بالميدان. كانت هناك كذلك بعض الأشجار، وعلى بعد مترين أو ثلاثة أمتار منهما بعض الكبار يلعبون الشطرنج بقطع بطول الساق. وفجأة مال الفتى بعفوية ودون إنذار يلعق الآيس كريم الذي غطى بلونيه شفتيها. ورغم أن عينيه كانتا مغمضتين رأى، رأى بقلبه، أن تلامس

الشفاه المحلّاة بمذاق الفراولة والفانيليا أعجبها. ولن يرى من يتأملهما من بعيد، سواء من رقعة الشطرنج أو من الشارع الذي تكدس بالسيارات كعصر كل يوم، كأن السيارات احتشدت في مظاهرة لتأييد إنشاء الطريق السريع، بل لن يرى من يتأملهما من أي نقطة أخرى على ظهر الأرض أنهما مجرد شاب وفتاة يرتديان ملابس طريفة يتبادلان القبلات على أريكة إحدى الحدائق. بيد أن ما اختلف في تلك القبلة عن آلاف القبلات التي تبادلها الحبيبان في مدينتهما البروتستانتية كل يوم ليست الثغرة بين سنيها، التي ألهبت كل قبلة من قبلاتهما، بل الآيس كريم لا أكثر ولا أقل. لقد ذاق الاثنان، ذاق الحبيبان في الفراولة والفانيليا الحلاوة التي وعد الرب بها خلقه. وبدا أن الأريكة قد وُضعت في هذا المكان وكل شيء أقيم حولها ليجلسا عليها الآن، ليصبحا في تلك اللحظة حقًا وصدقًا مركز الكون، إن صح أن الأحبة يؤثّرون في الكون وليس الكون هو ما يؤثر في الأحبة كما يقول الصوفيون. كتب أبو اليزيد البسطامي: "أخذت أطوف حول بيت الله وقتًا. ولما وصلت إلى الله رأيت أن البيت طاف حولي." وكما لا يرى الطفل الذي يضيع في اللعبة أو يفعل ما يؤلمه شيئًا سوى اللعبة أو الألم، كذلك استمتع الاثنان بكل قطرة من الآيس كريم، لكنهما ـعلى خلاف الأطفالـ كانا واعيين ولم ينسيا نفسيهما، شعرا بكل شيء، شعرا بلاعبي الشطرنج، وبالنافورة، وضجيج المحركات، وجميع الظواهر والمناظر دون أن يلقيا لها بالاً أو يعطوها أهمية. وفي التصوف كذلك، في كافة أنواع التصوف ما يدل على أن علينا أن نأكل من شجرة الإدراك لنعود إلى حالة الطهارة.

لكن المعايشة الخالصة والوعي المطلق لا يترابطان تلقائيًا في المستبصرين أو لحظات التبصرة الدنيوية القصيرة. إننا لا نتحول في الحب الأول ـ حب فترة الشباب ـ إلى أطفال، بل نبقى في المنتصف ونذوق نوعين من الإدراك.

(٨٩)

الرب هو الحب الذي ينمحي بالتأييد، هكذا أقتبس ابن عربي (أود من كل قلبي أن أقتبسه مرارًا وتكرارًا) خشية أن يفقد القارئ الصبر على حكايتي التي تدور حول فتى وفتاة في مدينة صغيرة في غرب ألمانيا في مطلع عقد الثمانينيات: "لا يمكن للحقيقة الجوهرية أن تحدث إلا بفعل العبد، أي محو الرب. كما إن الحجة المنطقية ـمثلها مثل الإدراك الشعوري- بوسعها أن تتوصل إلى وجود الله لا إلى وجود العبد ولا إلى العالم المخلوق. أما في المشاهدة فالتأييد هو محو الرب في عالم الظواهر." أدرك صعوبة فهم هذا المقطع على من يؤمن بالله ومن لا يؤمن بالله. لكني أرجو القارئ رغم ذلك أن ينتبه إلى تلك الفقرة، وأن يعيد تدبرها مرارًا إن اقتضى الأمر، أو في اليوم المائة، لأن بها لُب حكايتي وحكايتك أيضًا، متى وأين أحببتَ حبًا كبيرًا، لكن الرب له في الحقيقة أسماء مُخذِلة، ولا يدرك فائدة هذا الاكتشاف إلا قليلون.

(٩٠)

مثلما يرتّب المحاسب العائدات والنفقات ترتّب ذاكرتي الاتحاد والافتراق، بل إن المحاسب، الذي هو في الحقيقة ذاكرتي، يجعل الاتحاد والفراق يتتاليان خلافًا لكل التجارب كأنها "صفقة عمْر" ربحت قليلاً ثم ما لبثت أن تراكمت خسائرها. كلا، فالحب أكثر إهلاكًا لأنه يمزج السعادة بكثير من الألم حتى يشق على المحاسب أن يسجل السعادة كعوائد. وكما ذكرت فإن الغيرة التي لم تطرأ إلا عندما خشي أن يقضي أحد غيره الليلة في فراش جميلة الجميلات. وقبل أن أبدأ في موضوع "القنوط" علي أن أتحدث على الأقل عن الاضطراب، عن عودة الحيرة التي تلت كل لقاء إن كان حبه لها مجرد وهم، أود أن أحكي عن فقدان الشهية ونوبات الضعف والارتباك النفسي في المدرسة وبوادر الفزع المنتظم. ويعلم ابن عربي أن كل أعضاء المحب وكل أجزائه تفضح السقم والسهاد «...» فإن تكلم تكلم بلا عقل، ولا يبدي صبرًا ولا يعرف صلابة، يستولي عليه القلق باستمرار، وتزداد عليه لحظات الأسى. قد لا تكون مذكرات الفتى من الكتب التي أحب قراءتها، لكنها قد تعينني

في إعادة تصوير التتابع الزمني، وهأنا أقرأ بين الليلة الثانية والثالثة اللتين قضاهما في البيت المحتل أن مدرس اللغة الألمانية كلّف أحد أقرانه في الفصل أن يصحب الفتى إلى غرفة الإسعافات. وإن لم تفصح المذكرات عن مزيد من التفاصيل فأتذكر أن الفتى لم يستطع أن يجيب عن سؤال طرحه المدرس بجملة مفيدة. وأود أن أتحدث حالاً عن "العود اليابس". بدا الفتى بوجهه الشاحب وعينيه المتيبستين كالزجاج كشخص "ليس من هذا العالم" لدرجة أن المدرس الآخر أتى إلى غرفة الرعاية الصحية ليراه. سأل أولاً إن كان الفتى قد تعاطى مخدرًا، لكنه لم يتعاطَ أي مخدر، أعلم ذلك جيدًا، فلقد كان سكان البيت المحتل حذرين من إعطائه أية مخدرات، ما عدا مرة "نفخ" معهم في سجارة الماريجوانا، حتى تأثيرها الذي ادعاه كان زائفًا. كما أتذكر كيف استلقى الفتى على الأريكة الخضراء الموجودة في غرفة الإسعافات الصغيرة عديمة النوافذ، مسند الظهر مرفوع قليلاً، تنفسه غير منتظم، وعلى جانبه زميله في الفصل الذي تحدثت عنه، راح الاثنان ينتظران المدرس الذي بدا مؤهلاً للإسعافات الأولية. أتذكر المدرس الذي كان الفتى يحسبه حتى ذلك الحين مجرد مراقب في فناء المدرسة، لم يك واحدًا من ذوي الشدة، أتذكر أن المدرس قاس نبضه ووضع يده على جبينه، وأنه قال بعد الفحص أن عليه العودة إلى الفصل، وأن على الفتى أن يظل مستلقيًا قليلاً، فإن شعر بتحسن فليرجع مع زميله إلى الفصل، أما إن ظل متعبًا فعلى زميله أن يخبر السكرتارية أن يتصلوا بأمه كي تأتي وتأخذه. كنت متأكدًا إلى أن قرأت هذا المقطع أمس في المذكرات أن تلك الأعراض

المرضية الواضحة ألمت به بعد أن تركته جميلة الجميلات. لم ير المدرس أن حالته تستدعي القلق، وتحدث عن الأكل الصحي ونقص الحديد والنوم الكافي. ويشرح ابن عربي الوهن الذي يتملّك من المحب شرحًا بيّنًا بأنه زهد المحب عن الأطعمة الشهية اللذيذة والطرية والسائغة، التي تبهج الروح وتمنح الجسد الصحة وتشعره بالارتياح، بيد أنه ذكر أسبابًا لزهد الطعام لم يفكر فيها أي مسعف، لقد لاحظ المحبون أن العصارة الهضمية تصدر أبخرة تتصاعد إلى العقل وتبطل الإحساس، فيستولي عليهم النوم ليمنعهم من الجمود أمام المحبوبة أو المحبوب ومناجاته داخل النفس. كما تطلق تلك الأبخرة في أجسادهم طاقات تسبب حركات شاذة وتحفز الماء الذي تستنكر المحبوبة نزوله المفاجئ، هذا كله يؤدي بالمحب إلى رفض الطعام والشراب غير الضروري، لهذا تجف العصارات التي يفرزها الجسد في النهاية، ولهذا يُذهب هذا الحرمان نضارة الصحة والعافية، ويُذبل شفاه المحبين ويوهن أنسجتهم. بقي الفتى ورفيقه في غرفة الإسعاف صامتين فترة، وأخيرًا سأل التلميذ الفتى الذي عاد الدم قليلاً إلى وجهه إن كان كل شيء على ما يرام. أجاب الفتى "لا أدري".

(٩١)

أتذكر عصر اليوم الذي لم تسأل جميلة فناء المدرسة عنه، ولم تعد الاتصال به ولم تكن في البيت حين يرن الفتى جرس بابها، يبدو لي كأنه أمس، بل كاليوم، كاللحظة الحالية، كأني ضغطت في هذه اللحظة بالضبط ـلأني أجلس حقيقة في غرفة مكتبي الفخمةـ على الأجراس الأربعة التي كانت خالية من الأسماء جرسًا تلو الآخر ثم مرة أخرى عليها جميعًا دفعة واحدة. ولكن لأتساءل مع ابن عربي، ما هي الحقيقة، وأين ينتهي الحلم إن بدا لي موقف عشته قبل ثلاثين عامًا أوضح من حاضر مغطى بالصقيع كل الأصوات والأضواء فيه خافتة مكتومة؟ أستطيع أن أصف وصفًا تصويريًا كل سنتيمتر مربع في لافتات الأجراس، المواضع الفارغة التي أزيلت لافتات الأسماء من عليها، وبقايا المادة اللاصقة حيث ثُبّتت الأسماء المكتوبة على قصاصة ورق أو شريط لاصق، أو ربما التي نشأت من ملصقات البريد، والرجاء المكتوب بقلم فلوماستر أزرق غامق بعدم دق الجرس قبل الساعة الواحدة ظهرًا، والملصقة المثبت نصفها على الحديد ونصفها على الحارة التي تحمل عبارة " Fuck the

Army" وصورة سلحفاة سعيدة تمارس الجنس مع خوذة جندي. لكن المشهد يبدو في الوقت نفسه مشهدًا من عالم منقرض أو من حياة أخرى عندما أحاول أن أصف حالة الفتى من الداخل، متى وفيم فكر وماذا خطر بباله وكيف، وإن كان الأمل حرّكه أم اليأس التام، كأني إنسان آخر، أقف على الرصيف المقابل، لا أراه سوى من الخارج، أرى ثورته واضطرابه، أرى كيف راح يجمع الحصى من التراب بمحاذاة شريط القطار على بعد مبنى كامل، وراح يقذفها، أولا باتجاه نافذتها، ثم باتجاه النوافذ الأخرى المجاورة، دون أن يفتح له أحد الباب المؤدي إلى فراشها. كيف علم أن كل شيء قد انتهى؟ حب كبير كهذا ينتهي بعد بضعة أيام لمجرد أن الفتى لم يسمع عن جميلة الجميلات شيئًا لبضع ساعات؟ أعتقد أن منظر البيت الصامت أفزعه، لأنه لم يؤمن بإمكانية عدم تواجد سكان البيت في وقت واحد، أعتقد أنه توهّم مؤامرة ضده، تخيل أن سكان البيت يختبئون بجانب النافذة أو تحتها يضحكون ضحكات مكتومة سخرية منه، وجميلة الجميلات تقف وسطهم رافضة له أكثر من أي وقت مضى، أنا أفترض ذلك فقط، أفكر فيه وأستنتج من الأحداث القلق الهائل من أن يصيبه ما أصاب الدرويش الذي سقط الخبز من يده هولاً لما رأى أميرة بارعة الجمال تبسّمت له- حسبما اعتقد. أخذ الدرويش الذي لم تفارق خياله الضحكة الساحرة يبكي سبع سنين من لوعة الحب وينام مع الكلاب في الشارع الذي اتخذه بيتا له، ولما علم الخدم ما أصابه أرادوا قتله، لكن الأميرة دعته سرًا وحذرته أن يذهب سريعًا إن كان يريد البقاء على قيد الحياة. فسألها الدرويش: "إن كنت

سأموت الآن، فلماذا ابتسمتِ لي من قبل إذًا؟" أجابته الأميرة: "لم أبتسم لك، لقد كنت أضحك سخرية منك لأنك مغفل." مع العلم أني لم أضف حكاية الدرويش إلا لأصف بها إحساس الفتى. لكني في الحقيقة لا أدري ماذا كان يدور بداخل الفتى. وهذا ليس بسبب أن الذاكرة أسقطته، أو قد يكون ذلك مجرد جزء بسيط من السبب. أعتقد أن الفتى نفسه ظل عصر ذلك اليوم والأيام التالية غير مدرك لما يحدث حوله، فلم تنشأ في عقله ذاكرة تسجل الأحداث، راح يتصرف كالآلة دون تفكير، إن كان هذا هو، ليس الآخر على الرصيف المقابل، في عالم آخر، وحياة تصبح دون فائدة. ضحك الحلاج من جديد عندما وُضع على الصليب في بغداد عام ٩٣٤ وقال متوسلاً: "لا تعدني إلى نفسي".

(٩٢)

حيث إني لم أُصِب من الحب الكبير ولا حتى أدنى علاقة فعلي أن أشير للذل، إذلال النفس الذي ما زلت أخجل منه إلى اليوم، إذلال النفس المؤلم دون فائدة، الذي لا يستثني منه الفتى أحدًا أبدًا، على الأقل مقارنة بمحبي ابن عربي بأن الحب يصرع الإنسان حتى يخلع الإنسان عباءة الخجل ويبدي للناس كل أسراره. فلا تنتهي التنهدات العميقة التي يجلبها الحب، ولا تجف الدموع التي يجريها. ولما انتظر الفتى جميلة الجميلات أمام المدرسة في صباح اليوم التالي والذي يليه وكذلك اليوم الثالث دون أن يتلقى منها سوى إيماءة صغيرة فاترة مطبقة شفتيها على سبيل التحية، بل ليست إيماءة، مجرد نظرة خاطفة بوجهها لأسفل، كان الفتى لا يزال يسير في دروب أسى الحب المعروف مثلما سيعيشه مرارًا وتكرارًا. وقف في ركن المدخنين بين أولي المناكب العريضة أكثر حيرة وارتباكًا واضطرابًا من أي وقت مضى، رغم أنها أوقفت تلاميذ الثانوية حولها حتى لا يجرؤ على مخاطبتها. لكن لأنها ظلت تجعل أحد سكان البيت يبلغه عدم تواجدها في البيت عند اتصاله، وطلبت من

آخر أن يخبره عبر النافذة أنها ليست بالبيت، فقد الفتى السيطرة على نفسه لسبب لم أعد أتذكره أو ربما دون سبب، فنهض فجأة في حصة الأحياء، وأسرع بين المقاعد إلى خارج الفصل مارًا على المدرس الذي تسمّر في مكانه متفاجئًا، نزل السلم ـمرتديًا نعليهـ ثلاث درجات دفعة واحدة، وأخذ يفتح كل باب يقابله في فصول مبنى المرحلة الثانوية ليرى إن كانت جميلة فناء المدرسة مختبئة وراءه. وهنا على الأكثر سيعرف جميع من تخرجوا عام ٨٣ إلى ٨٥ من المدرسة المعروفة بالمدينة التي ولدت فيها الذين يقرؤون تلك الحكاية مصادفة وسيتذكرون الفتى الذي اقتحم الفصل حزينًا، ملابسه وشعره لا يُفرقانه كثيرًا عن خيال المآتة، وراحت عيناه تبحثان عن شيء معين في صمت قبل أن يخرج مرة أخرى مسرعًا. لا، لن يعرفه كل الخريجين، فبعد أبواب لا أتذكر عددها أبصر الفتى جميلة الجميلات أخيرًا مشرقة جانب النافذة، تحيط برأسها هالة من نور كهالة القديسين، عثر عليها جالسة في ثاني صف من الصفوف الأربعة، رأى وجهها من الجانب بأنفها المستدق المنحني قليلاً للأمام، يختبئ تحت قميصها النهدان، يبرزان كتلّين صغيرين يعلوهما برجان قزمان. وجهها، أجل إنه وجهها من الجانب: وبينما نظر جميع التلاميذ وكذلك المدرس إلى الفتى في عجب لم ترفع هي عينيها عن دفترها، وظلت تكتب بالقلم الذي أمسكته بأصبعيها الرقيقين مثلما أمسكت السيجارة من قبل عند النهر، كأن الفتى الواقف على بعد ثلاثة أمتار غير موجود بالمرة، كأنه مجرد هواء. شعر بنفسه آنذاك مثل الحجر، قالب من الصخر، ثقيلاً وعاجزًا عن أي فعل. لا أدري ماذا حدث بعد ذلك، هل تحدث إليه

المدرس أو أقبل عليه أحد، ربما يكون قد وضع يده على ساعد الفتى مهدئًا. الفيلم به هنا أيضًا ثغرة من الثغرات المعتادة، وتواصل الذاكرة الأحداث حينما أراد الفتى أن يصعد فوق المقعد بقفزة عالية، لكن أحد نعليه انزلق من حافة المقعد فاصطدم رأسه بلوح المقعد. ودون أن يشعر بأي ألم سوى ألم الفراق تسلق الفتى المقعد مرة أخرى حافيًا، ونادى بصوت عال دوى حتى سُمِع في قسم الفصول الابتدائية: "أنا أحبك." مضيفًا اسمها إلى عبارته، رغم أنه لم يكن جميل فناء المدرسة. وقد يتساءل القارئ عن رد فعل جميلة الجميلات على هذا الكازانوفا الذاتي الذي بدا كالمهرج، ويستطيع كذلك أن يتخيل بقية المشهد، زملاؤها في الفصل، الذين أنزلوه عن المقعد وأخذوه إلى غرفة الإسعاف بناء على تعليمات المدرس، وأمه التي أبلغتها المدرسة، وخيبة الأمل في عينيها، والسؤال الذي لم يكن قط في غير محله إن كان كل شيء على ما يرام. يعلم الله الفزع الذي تملكني حينما تذكرت اليوم القفزة على المقعد، وكم كان المشهد بأكمله مخجلاً له طوال الفترة التي تبقت له في المدرسة. "لقد عُرف سره، ولأنه لم يستطع أن يتصرف بشكل غير لافت فهاهو يتعرض مهانًا وعاريًا للعتاب." وبعد الغداء الذي لم يمسه قفز من النافذة وقضى فترة بعد الظهيرة على الرصيف تحت شباكها.

(٩٣)

يُحكى عن يأس أبي بكر الشبلي أنه كان ذات يوم يتوضأ، وحينما دخل المسجد سمع صوتًا داخل نفسه يناديه: "يا أبا بكر، هل تجعلك طهارتك تدخل بيتنا بهذه الجرأة؟" فعندما سمع ذلك رجع، لكن الصوت قال: "هل تنصرف من بيتنا. إلى أين ستذهب؟" فصرخ أبو بكر، لكن الصوت قال: "أتريد أن تهيننا؟" فوقف أبو بكر صامتًا، وعندئذ قال الصوت: "أتتظاهر بأنك تستطيع أن تتحمل ابتلاءنا؟" فأخذ أبو بكر يصرخ حتى سمعته بغداد كلها يقول: "أغثني منك."

(٩٤)

الفتى الذي كان يحسب جميلة الجميلات أرحم الناس قبل أيام لم يتفهم البرود والسخرية والجفاء التي جعلتها تواصل الكتابة في دفترها بينما يسيل دمه شهادة بحبها (أعترف أنه كان جرحًا طفيفًا . لكنه نزف نزفًا متواصلاً). كان من الممكن أن يفهّمه أبو بكر الواسطي الذي عاش في بغداد في القرن العاشر بقوله "الرحمة موجودة في كل الصفات الإلهية، لكنها ليست موجودة في الحب". لم يُصلب أبو بكر ولم يسجن مع المجانين، بل اعتبر من الورعين الباحثين عن الله وعاش حياة هادئة. ويستدرك أبو بكر " الحب ليس فيه رحمة. الرب يميت ويطلب من الميت الفدية". فكرة لافتة فهمها الفتى خطأً على أنها تتعلق بتعدد للآلهة، أي أن هناك آلهة كثيرة، لكن إلهه الذي صادف أن كان إله الحب هو الإله القاسي بينهم. واليوم أرى أن عدم اكتراثها بالفتى الواقف على بعد ثلاثة أمتار، كأنه غير موجود أو كأنه مجرد هواء، لم يكن من قبيل القسوة. فبسبب حبه وكذلك حبها دون ما سواهما أصبحت الفتاة في موضع يجعل أي تصرف يبدو قاسيًا. لأنها قررت لأي سبب كان ـ ولأنه نفسه

ساهم في ذلك مثلما يكون الإنسان دائمًا هو المذنب في حق نفسه وفي المواقف المحرجة التي يقع فيها- لأنها اتخذت قرار الافتراق فلم تستطع أن ترتمي في أحضانه حينما قفز على المقعد، حتى تعاطفها كان سيطيل معاناته، أي اهتمام كان سيزيد تفاؤله. إن كان هناك مذنب فهو الفتى، لأنه وضع جميلة فناء المدرسة في موقف أكثر حرجًا، بل وأكثر خطورة من ناحية المسؤولية الأخلاقية، وبما أنه كان قاصرًا أمام مسؤولية جنائية أيضًا، وذلك لا لشيء سوى إرضاء لأنانية خالصة، أو بسبب انعدام التفكير، أو من يدري؟ ربما حب الانتقام. لقد وجد الفتى في مقولة أحمد الغزالي "اعلم أن المحب عدو وليس صديقًا" فكرة بدأ يفهمها بعد مرور سنوات طويلة، عندما أحب حبًا أعمق دام فترة أطول، عندما حارب بضراوة، وفقد أكثر، عاش النشوة الجسدية -على الأقل- بشكل أشمل: "وكذلك المحبوب عدو وليس صديقًا، فالصداقة مرتبطة بمحو الأثر محوًا تامًا، وطالما وجدت الثنائية وانشغل كل واحد بنفسه كانت العداوة مطلقة. الصداقة موجودة في الوحدة فقط، لهذا لا يتصادق المحب والمحبوب، هذا غير موجود. ليس سوى الخلاف، ليس سوى العذاب، وفي النهاية يتلامسان بحيث لا تنشأ بينهما صداقة أبدًا. والله أمر غريب، يضطرب فيه وجودك الخالص." وإن كانت جميلة الجميلات تُلام على شيء فليس على الشدة التي افترقت بها، وإنما على الحب نفسه الذي تجاوبت معه، مع أنها بحكم أنها الأكبر سنًا كانت تستطيع بشيء من حس الواقعية أن تتنبأ بزوال العلاقة وبالألم الذي ستسببه للفتى. ورغم ذلك، فحتى ذلك اللوم غير عادل، ليس فقط لأن أحدًا لا ينبغي أن

يسلّم نفسه لأحد، ولا حتى الرب لمخلوقاته، يحبهم ويحبونه. وينكر نفسه إنكارًا متشددًا. ويقول أحمد الغزالي: "أن تُحِب يعني أن تكون هو (تكون هي)، وأن تُحَب يعني أن تكون أنت «...» لأنك لا تستطيع أن تكون لنفسك، وإنما لمحبوبك. فأنت المحِب، لا يحق لك أبدًا أن تكون ملكًا لنفسك، ولا أن يكون لك حكم عليها." فإن كانت المخلوقات تخيب ظن الرب رغم علمه المطلق، فما كان للجميلة أن تتنبأ بحس المرأة الواقعية بأن الفتى سيكون مغفلاً، ولو كان هناك أمل فلا بد أنه بدده بقفزته على المقعد. على الأقل لم يكتب بألوان الرش على باب بيتها في المساء أن عدوة للرجال تعيش في هذا البيت. وعلى أية حال فلم يكن "موت أميرة الأساطير" من كتبه المفضلة.

(٩٥)

نزل أحد سكان البيت ذات يوم إلى الشارع ليتحدث مع الفتى الذي عكف أمام الباب. كذب الساكن قائلاً إن جميلة الجميلات ليست هنا، لا في المطبخ ولا في غرفتها، لكن الفتى كذب كذبة أكثر إقناعًا، قال إنه رآها عبر النافذة، وأنه مصر على البقاء ولن يفارق محله لا الليلة ولا حتى طوال الأسبوع حتى يدخل إليها. لم يبالغ قط في قوله إنه يريد أن يرتمي تحت قدميها ، بل أكثر من هذا، فكانت عبارته مقرونة بتساؤل، إن كان من الأفضل أن يرتمي أمامها على الموكيت المبقّع فورًا، أم على بعد خطوتين من فراشها حتى يصير ملكها وأسير أمرها للأبد. أكد الساكن وهو يسير بجواره لدى السور الذي يصل ارتفاعه إلى الصدر، أن على الفتى أن يخرجها من رأسه، إنها لا تريد أن تعرف عنك أي شيء بعد ذلك، ولا تريد أن تناقش معك أمر الافتراق. ارتاح الفتى للماء اللطيف الذي كسر قسوة الحجر، وراح يشرح للساكن أن الحب له بعد سياسي أيضًا وخاصة عندما يكون بين اثنين. ورجا أن يعقد السكان جلسة يحاولون فيها التأثير على جميلة الجميلات، أو

يتحدثوا إليها فرادى، فالأمر في النهاية أكثر من مجرد مشاعر شخصية، إنه تحقيق لحالة مثالية قد تصبح نموذجًا يحتذى به. كان مقتنعًا أنه يتحدث بلباقة تامة، وسرد جميع حججه بدقة وتفصيل مثلما فعل في جمعية الطلاب الإنجيلية، اعترف بأنه ارتكب أخطاءً، وحلل مواطن سوء الفهم، واعتبر قفزة المقعد حماقة، وذكر بصراحة واضحة وصادقة الاختلافات، أو التناقضات بينه وبين جميلة الجميلات، ليس العمر فقط، بل الاختلافات، أو التناقضات الجذرية في شخصية كل منهما، فهي -مرة أخرى- الواقعية، وهو الحالم، لديها النظام، ولديه الفوضى. والحب هو المعجزة الأعظم لأنه يتجاوز كل العقبات، ويتحمل كل الصعوبات، وينسف كل الحدود. وربما كان الفتى سيرجو حركة السلام كلها وليس جماعة المطبخ فقط أن يساعدوه، فقد بدت أهمية الصلح تاريخية، لكن الساكن قفز عبر السور صائحًا في الفتى بعبارة تفيقني كل كلمة فيها منذ ثلاثين عامًا: "أنت مجنون يا رجل". ومن أمام البيت المحتل سمع الفتى للمرة الأول نداءً على رصيف محطة القطار يعلن الساعة الخامسة واثنتين وثلاثين دقيقة: الرجاء الانتباه عند دخول القطار.

(٩٦)

ابني الذي كان أول من قرأ "الحب الكبير" يأخذ علي أني كنت قاسيًا جدًا على الفتى، خاصة في الصفحات الماضية. لم يعد ابني يقرأ، وهو خلاف كبير آخر بيننا بجانب الفضائل الثانوية المعطوبة، إنه يخجل من أن يراه أحد بالكتب، هكذا انطباعي، يصف الأدب فعلاً بالمعاق، ولم يستطع ولا مرة واحدة أن يقهر شيطان نفسه ويقرأ أكثر من عشر صفحات من رواية محبوبة حتى مقابل مكافأة مالية يتفاوض عليها بضراوة. ولا أستطيع سوى أن أخمن ما يسلب الوقت ويُثقل القراءة وتأثيرها المباشر في فترة شبابه، فالأفلام والتليفزيون لا يستهويانه أيضًا. يكتب شيئًا على حاسوبه سرعان ما يختفي من الشاشة فور دخولي النادر إلى غرفته. أتساءل من أين أتى هو وكل الأجيال التالية بالصور النمطية التي تؤثر على وقوع الشباب في الحب منذ خمسة آلاف عام. وما الذي يطرأ بدلا من الأفلام التليفزيونية (والروايات والأفلام واسعة الرواج إلخ) التي نحسبها مبتذلة لأنها تصور تجربة أساسية تصويرًا تجاريًا إذا لم يكن الشباب قد عاش الشيء الفريد في تلك التجربة أو لم يعشها أصلاً؟

وبفم ممتلئ بالكورن فليكس قال لي ابني صباح اليوم أنه تصفح مسودة الرواية ـالتي أعترف أني وضعتها متعمدًا في غرفة المعيشةـ وأنه يرى أن الفتى بالغ قليلاً، لكنه على حق تمامًا. وبغض النظر عن النعال، فملابسه الشبابية رائعة، الأوفرول والكنزات القطنية الثلاث، التي لا بد أن يكون أطولها من تحت وأقصرها من فوق ليبدو "هيبز" حقيقيًا. أمّا شعره الطويل المموج كشعر جيمي هيندريكس فعظيم بلا شك. هل تعرف جيمي هيندريكس؟ طبعًا، أما "حبيبة" فناء المدرسة، فقال إنه يشك في أن تكون جميلة أصلاً إن كانت هناك ثغرة بين سنيها الأماميتين، لكنها على أية حال بدت لطيفة للغاية ومتزنة في تعاملها مع الفتى، بل وكريمة أيضًا، ولم تهتم بما رآه الآخرون. هل هي حقيقية؟ أجل، "الحبيبة" كانت موجودة في الحقيقة، فوّت فرصة تصحيح طريقة تعبير ابني، وفوّت كذلك فرصة أن أنبهه ألا يتحدث بفم ممتلئ، وأقحمته بدلاً من ذلك في حوار طويل دام إلى أن تأخر على المدرسة. إنه يحب. أفكر في ذلك وضربات قلبي تتزايد. إنه يحب. لأني لا أستطيع أن أشرح لنفسي أكثر، لأنه قرأ "الحب الكبير" بالذات حتى آخر صفحة فيها، دون أن يتحدث حتى عن المكافأة.

(٩٧)

سأل درويشٌ المجنون ذات يوم عن عمره، فأجاب "تسعمائة وخمسة وخمسون عامًا." فأردف الدرويش "ماذا تقول؟ هل أنت مخبول؟" فأجاب المجنون "منذ أن أبدت ليلى لي وجهها لحظة، هذه ألف سنة، وعمري الطبيعي أطرحه منه، أربع وأربعون سنة."

(٩٨)

ثم انصرف، لا أستطيع سوى أن أخمن مرة أخرى ما جال في نفسه، وأسمع الإنذار بمغادرة القطار التالي في الساعة السادسة وتسع عشرة دقيقة، أي لم تنقضِ ساعة واحدة منذ أن أعلن أن صلحه مع جميلة الجميلات واجب تاريخي أمام العالم، فقفز عبر السور، ومشى تجاه الباب، وضغط للمرة التي لم أعد أعرف عددها على أزرار الجرس الأربعة الخالية من الأسماء دفعة واحدة، وانتظر مرة أخرى كي يفتح له أحد، ورفع بصره ثانية إلى النافذة، ثم استدار ليقفز عبر السور مرة أخرى ويقف على الرصيف. اتجه الفتى نحو المحطة، ربما لأنه أحس بالجوع أو العطش، أو لحاجة لم يعد يستطيع أن يؤخر قضاءها، أو ربما بسبب ليسترحم والديه اللذين يفترسهما القلق عليه أن يعود إلى باب بيتها في الصباح بعد أن يستعيد قواه وربما مزودًا بالمؤن، سواء استسلامًا أو توهّمًا، وبينما سار بمحاذاة البناية في اتجاه رصيف القطار راح يتطلع مرة بعد مرة إلى نافذتها، آملاً أن تطل جميلة الجميلات منها وتناديه ليعود، ثم ظل واقفًا لدى نفق المشاة، وبعد دقيقة أو دقيقتين نزل السلالم

ليخرج من الناحية الأخرى إلى ضوء النهار أمام المحطة، ثم عاد إلى بيته. ابني كان على حق عندما حكيت له مساء أمس النهاية التي بدأ معها الافتراق والاشتياق والأسى، إنه محق في أن الحماقة الأكبر بين كل حماقات الفتى تكمن في عدم مثابرته، كان عليه أن يواصل اعتكافه ليلة أو حتى أسبوعًا حتى تفتح له جميلة الجميلات الباب. إذ كانت ستخرج من الباب لا محالة، في الصباح التالي مثلاً كي تذهب إلى المدرسة. تخيل أن ابني قال: كان حريًا بك أن تظل جالسًا على السور.

(٩٩)

تظل الرسالة التي سأقرؤها مرة أخرى بعد ثلاثين عامًا أمامي على المكتب، داخل المظروف الأصفر المفتوح، المزين بالبحر والشمس الغاربة والسحب وبعض النوارس. كأن شبح العالم ينبهني إلى أن الحب الكبير، وكذلك الحرب ضد التسلح النووي، يصلحان لحقبة زمنية أخرى، لعالم غريب، كأن ألمانيا التي أعيد توحيدها لا تعرف مصلحة البريد الاتحادية ولا العملة الموجودة على الطوابع، بل وتكاد تعرف الرقم البريدي على الختم وفي العنوان، بجانب المُرسِل اسمها الأول فقط، الذي لم يعد يعطى لأية بنت. حتى نوع الكتابة لم يعد يُدرّس في أية مدرسة. إن فتى في الخامسة عشرة من العمر في أيامنا هذه لن يستطيع حتى أن يفك طلاسم الكتابة الدائرية المنتظمة التي يتكون منها السطر.

(١٠٠)

سأل أحدهم أبا اليزيد البسطامي، الشيخ العارف الذي عاش في القرن التاسع الميلادي، عن أجمل ما يكون في أي بحر. فأجاب أبو اليزيد: "أرى أن الأجمل هو أن يظهر أحد من البحر مرة أخرى."

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.

تليفون: ٠٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٠٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+

بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com

موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com

"مرّ المجنون ذات يوم على دار ليلى، ولما نظر إلى السماء سمع صوتًا ينادي: يا مجنون، لا تنظر إلى السماء، ولكن انظر إلى جدار ليلى. فأجاب: أكتفي بنجم يقع نوره على دار ليلى."

حب كبير، هي قصة حب مراهقين بدأت في ركن المدخنين بفناء المدرسة. فتى في الخامسة عشر من عمره يقع في حب فتاة تكبره سنًا. في مائة فصل يقص علينا الراوي قصة غرامه التي وقعت منذ ثلاثون عامًا، لم يكن كبيرًا كفاية ليقف في ركن المدخنين لكنه تجاوز القواعد حتى يتقرب من حبيبته التي تكبره بثلاث سنوات. كانت تجلس دائمًا في ركن المدخنين، حتى أنها تمتلك سيارة، ولم تكن حظوظه في الفوز بقلبها كبيرة لكثرة المنافسين. ثم تحدث المفاجأة، يستطيع الفتى ذو الخمسة عشر عامًا تقبيل فاتنة المدرسة، بل ويقضي معها ثلاثة أيام كاملة.

نافيد كيرماني مستشرق ومؤلف ألماني ولد عام ١٩٦٧، يعد من أهم الباحثين الألمان في الدراسات الاستشراقية. صدرت له أعمالًا علمية وأدبية وصحفية، كما تنشر له بصفة دورية مقالات حول قضايا راهنة وتقارير عن العديد من الرحلات من بينها رحلات إلى أفغانستان وباكستان في الآونة الأخيرة. فاز كرماني بجوائز عديدة تقديرًا لقيمة مؤلفاته الأكاديمية والأدبية، كما حصل مؤخرًا على منحة «فيلا ماسيمو» في روما، وفضلًا عن ذلك يعتبر عضوًا للأكاديمية الألمانية للغة والشعر وعضوًا للمؤتمر الإسلامي في ألمانيا.

أحمد علي، مترجم مصري، حاصل على درجة الماجستير في الترجمة من كلية "اللسانيات والترجمة والدراسات الثقافية" بجامعة "يوهانس جوتمبرغ - ماينتس" بألمانيا عام ٢٠١١. نشرت له عدة ترجمات في الأدب عن الألمانية منها: "جوال" مجموعة قصصية لإنجو شولتسه، "قرع الطبول ليلًا" مسرحية لبرتولت بريشت، "كالتنبورغ، الصبي الشريد" رواية للكاتب مارسيل باير.

ISBN 978-977-803-061-7